مصطفى جواد

سيدات البلاط العباسي



١٩٥٠

دار الكشاف
للنشر والطباعة والتوزيع
بيروت - لبنان

في ٤ شباط سنة ١٩٥٠

مُصطفى جوَاد

سيدات البلاط العباسي

❖

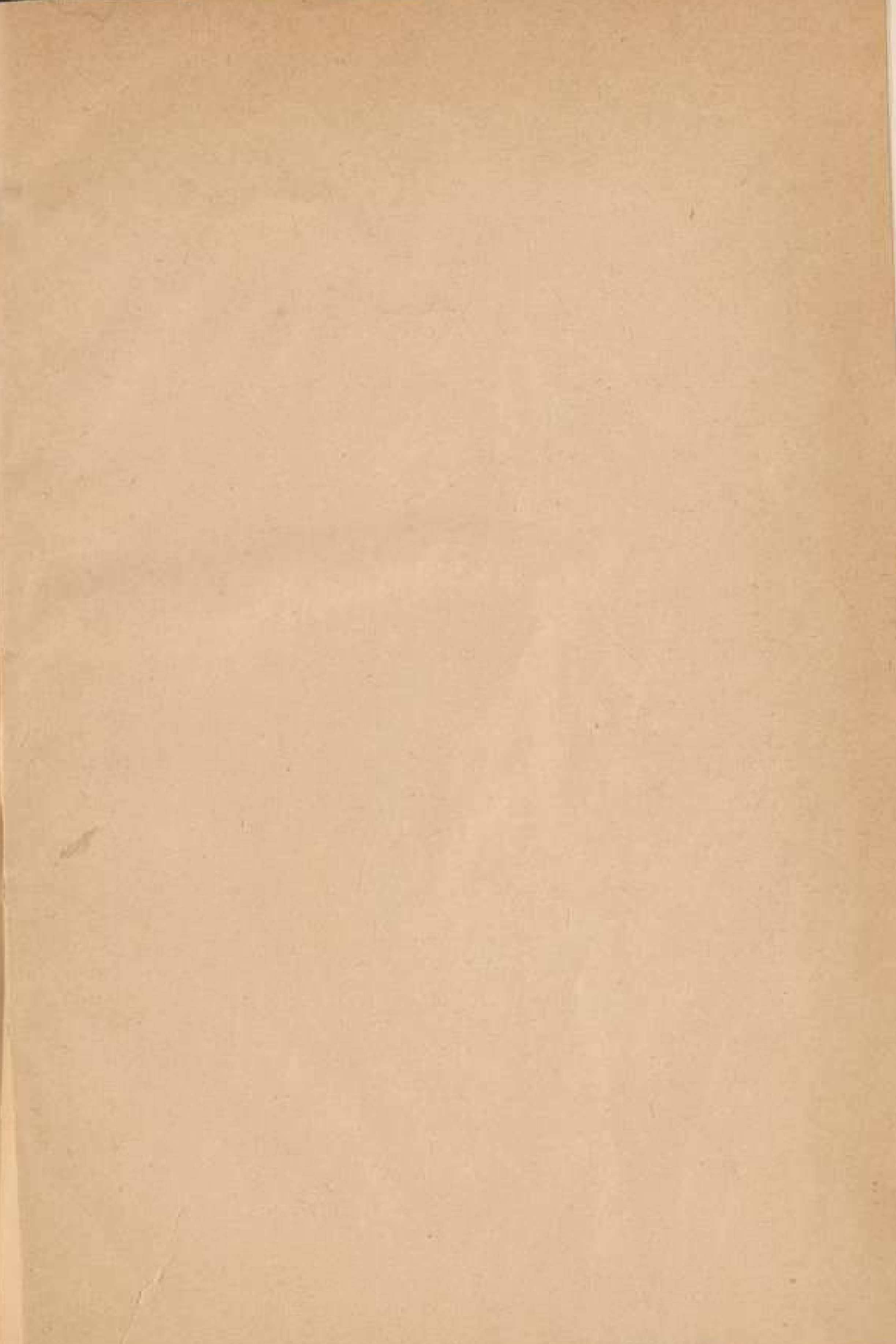
١٩٥٠

مقدمة

لم يزل تاريخ بني العباس منتجعاً خصباً لطريف الاخبار ، ومظنة رائقة لفنون الآداب ، ومراداً مؤنساً لمؤرخي التمدن والتقدم ، وسجلاً ضخماً للرسوم « الاتيكيت » والعلوم والانباء الطريفة والاقوال الحصيفة ، والمقالات العجيبة ، والحوادث الرائعة والمحاضرات الممتعة ، والتراجم المؤنقة النافعة .

ومن طريف ما اضطمت عليه احناؤه وتضمنته اثناؤه ، تراجم سيدات من نساء الخلفاء وامهاتهم وذوات قرباهم ، تصغي الافئدة لسماع اخبارهن ، وترتاح النفوس الى معرفة آثارهن ، وتنصت الآذان لقاص مآثرهن ، ويبتهج محبو التاريخ بقراءة سيرهن ، فان في كل ذلك ادباً عالياً واخلاقاً زكية زاهية ، واعمالاً بهية ، وسمو نفوس كرائم ، وكرامة طباع عظيمة ، وديانة متينة وتقوى رصينة ، وافعال بر واسع ، واحساناً متصلاً ، وفي ذلك ايضاً قدوة سامية لذوات النفوس العلية ، واسوة حسنة للمؤثرات الانسانية على انفسهن ، المفضلات الآخرة على الدنيا ، المستحبات التاريخ الازهر على التاريخ الاغبر .

المؤلف



أم سلمة المخزومية

زوجة أبي العباس السفاح أولى سيدات البلاط العباسي

هي أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد ابن المغيرة المخزومي ، من ذرية عبد الله المخزومي اخي خالد بن الوليد ، تزوجها أول مرة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم مات عنها وبقيت ايما ، حتى تزوجها أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وكان مسلمة يشرب الخمر ولا يفيق من سكره ، ولا يهتم بأمور الدولة الأموية ، مع أن والده هشام بن عبد الملك كان يرشحه للخلافة بعده . ثم توفي والده سنة ١٢٥ هـ ، وولي الخلافة بعده الوليد الصغير ابن يزيد ابن عبد الملك ، فأرسل الوليد ابنه العباس لاحصاء ما في خزائن هشام بن عبد الملك وأبنائه وأخذ ما يأخذ من أموالهم ، فأحصاها واستقصاها ، سوى اموال مسلمة بن هشام زوج أم سلمة المخزومية فانَّ الوليد كان يرعى له أياديَ بيضا ، ولكن أم سلمة لضجرها من زوجها في استهتاره بالخمر كتبت الى العباس بن الوليد كتاباً تقول فيه : « إن مسلمة ما يُفيق من الشراب ولا يهتم بشيء مما فيهْ إخوته ولا بموت أبيه » ، وكأنها شكته اليه وحرضته عليه .

ولما أتى مسلمة بن هشام الى العباس بن الوليد زائراً أنّبه

العباس ووبخه على الشراب وعــاتبه وقال له : « كان ابوك يرشحك للخلافة ونحن نرجوك ، فما هذا الذي بلغني عنك ؟ » فأنكر مسلمة ذلك ، وقال له : مَن أخبرك بذلك ؟ قال : كتبت إليّ به زوجتك أم سلمة . فطلّقها في ذلك المجلس . جرى كل ذلك في دمشق ، وما حولها ، فخرجت أم سلمة بعد طلاقها إلى فلسطين مع جواريها وحشمها وأموالها وسكنت فيها ؛ وكان بنو العباس المطالبون بالخلافة يسكنون فيها ؛ فبينا هي ذات يوم جالسة إذ مرّ بها أبو العباس عبد الله بن محمد السفاح ، وكان جميلاً وسيماً كامـل الشباب أبيضَ البشرة ، فحلي في عينيها ، فسألت عنه وأعلمت بنسبه وأنه عزَب ، فأوسلت اليه مولاتها تعرض عليه أن يتزوجها وقالت لها : سلمي عليه وقولي له : هذه سبعمائة دينار أوجه بها اليك . وكان لأم سلمة مال عظيم وجوهر وحشم ، وكأنها علمت فقره واملاقه ، فاتتـه المولاة ، فأبلغته سلام سيدتها وأدت اليه رسالتها ، فقال لها : قولى لسيدتك أنا مملق لا مال عندي ، ولو كانَ عندي من المـال ما أرضاهُ لك لفعلت ، فقالت المولاة : هذه سبعمائة دينار بعثت بها سيدتي اليك لتصلح بهـا شأنك ، فاخذ المال وأقبل إلى أخي أم سلمة فخطبها اليه ، فزوجه اياها على صداق مقداره خمسمائة دينار ، وأهدى اليها مائتي دينـار ، ودخل عليهـا من ليلة ذلك النهار الذي عقد فيه الامـلاك ، فوجدها جالسة على منصة وكل عضو منها مكلل بالجوهر ، ثم دعت بعض جواريهـا وغـيرت ملابسها ولبست ثياباً مصبّغة ، وحظيت عنـده وحلف لها أن لا يتزوج عليها ولا يتسرّى (أي

لا يتخذ جارية مملوكة في محل مستور عنها ، كما كانت عادة الرجال الاثرياء) ، وغلبت عليه غلبة شديدة وملكت أمره وقلبه ، حتى ما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها واستئمارها ، ولا يستطيع زواجاً ولا تسرّياً .

وكان دعاة بني العباس في تلكم الايام قد احكموا أمورهم ووطدوا دعوتهم ، وكثر أعوانهم في ايران وفي العراق ، فاستدعوا أبا العباس السفاح من فلسطين الى الكوفة ليبايعوه بالخلافة ، فانتقل اليها وبويع بها سنة ١٣٢ وعمره سبع وعشرون سنة ، ثم انتقل من الكوفة الى الانبار وبنى عندها مدينة سمّاها الهاشمية ، وسكنها هو وأرباب دولته ، والانبار مدينة كانت على نهر الفرات من الجانب الشرقي ، فوق الفلوّجة ، وانتقلت العمارة منها إلى هاشميّة السفاح وصارت تسمى الانبار ، ثم زالت الانبار الحديثة في القرن الحادي عشر للهجرة ، لان أخبارها انقطعت في هذا القرن ، ولا تزال آثارها معروفة إلى اليوم .

ولما كان ابو العباس السفاح أول خلفاء بني العباس وكانت أم سلمة المخزومية زوجته ، عُدت أولى سيدات البلاط العباسي ، وقد لبثت مع زوجها السفاح في الهاشمية عاصمة الخلافة العباسية يومئذ مدة خلافته ، وكان مجلس السفاح من مفاخر مجالس الخلفاء ، فقد وهب الله تعالى - إلى جمال الصورة - كمال الخلق وصواب الرأي واستقامة السيرة وحسن التدبير ووافر الادب ، حتى لقد ولي الخلافة قبل أخيه أبي جعفر المنصور ، مع أن المنصور كان اكبر منه سناً . وأخباره في الاحسان الى بني الحسن العلويين

مشهورة . وكان من ندماء السفاح في الادب والأخبار خالد بن صفوان التميمي ، ومما نقل من أخباره الطريفة أنه دخل ذات يوم على السفاح فوجده وحده ، فجلس ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إني فكّرت في أمرك ، وسعة ملكك ، وقد ملّكت نفسك امرأة واحدة ، فان مرضتْ مرضت أنت ، وإن غابت غبت أنت وحرمَت يا أمير المؤمنين نفسك التلذذ بالجواري الطريفات ، ومعرفةَ أخبار حالاتهن ، والتمتع بما تشتهي منهن . فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة التي تشتهى لجسمها فهي الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء التي تحب لروعتها ، والسمراء اللعساء والصفراء العجزاء الذهبية من مولدات المدينة والطائف واليمامة ، ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر ، تفتن بمحادثتها وتلذ بخلوتها ، ومنهن المولدات البصريات والكوفيات ، ذوات القدود المهفهفة والاوساط المخصّرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة والثديّ المحققة ، وأين أمير المؤمنين من بنات الاحرار والنظر الى ما عندهن وحسن الحديث منهن ? ولو رأيتهن ورأيت حسن زيهن وزينتهن لرأيت شيئاً حسناً » .

وأخذ خالد يتمّطق بلسانه ويجيد وصف الجواري ويطنب في محاسنهن بحلاوة لفظه وجودة وصفه ، فشوق أبا العباس السفاح إليهن ، ولما فرغ من كلامه قال له أبو العباس : ويحك يا خالد ، ما سلك مسامعي كلام أحسن من هذا ، فأعد علي كلامك فقد وقع مني موقعاً . فأعاد عليه خالد الكلام أحسن مما ابتدأه ، ثم استأذنه في الانصراف فانصرف .

وبقي أبو العباس السفاح مفكراً فيما سمع منه مغموماً ، فدخلت عليه امرأته أم سلمة ، فلما رأته مطرقاً مفكراً مهموماً قالت له : إني أستغرب حالك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء . قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، ويتفادى من الجواب ، فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد بن صفوان التميمي . قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ فقال السفاح : سبحان الله ينصحني وتشتمينه ؟! فخرجت من عنده مغضبة ، وأرسلت إلى خالد جماعة من الجند في أيديهم عصي غليظة وأمرتهم ان لا يتركوا منه عضواً صحيحاً . وحكى خالد عن نفسه قال : انصرفت من مجلس السفاح إلى منزلي ، وأنا مسرور بما رأيت منه وإعجابه بما ألقيته إليه ، ولم أشك في أنه سيبعث إليّ بصلة ، فلم ألبث طويلاً حتى رأيت جماعة من الجند ، وأنا قاعد على باب داري ، ولما رأيتهم قد أقبلوا نحوي أيقنت بالجائزة ، ثم وقفوا عليّ فسألوا عني ، فقلت : ها أنذا خالد بن صفوان ، فسبق إلي واحد منهم وأهوى إليّ بخشبة ، فوثبت ودخلت منزلي وأغلقت على نفسي الباب ، ومكثت أياماً ثلاثة على تلك الحال ، لا أخرج من منزلي ، ووقع في نفسي أنّ أم سلمة هي التي سلطت هؤلاء عليّ . وطلبني أبو العباس السفّاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا عليّ وقالوا لي : أجب أمير المؤمنين . فأيقنت بالموت وقلت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، لم أر دم شيخ أضيع من دمي . فركبت الى دار السفاح

وليس عليّ لحم ولا دم من الخوف ، فلقيته منفرداً ، ورأيت في المجلس بيتاً عليه ستور رقيقة وسمعت حركة خلف الستور . وقد شعر خالد بن صفوان أن وراء الستور أم سلمة أو من تنقل لها الحديث ، قال خالد : فقال لي أبو العباس لم أرك منذ ثلاث ليالي . فقلت : كنت عليلاً يا أمير المؤمنين . قال : ويحك إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يسلك مسامعي قط كلام أحسن منه ، فأعده علي ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرّة من الضرر ، وأن أحداً ما تزوج من النساء اكثر من واحدة إلا ضر وتنغص ، فقال : ويحك لم يكن هذا في الحديث ، قلت : بلى والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر يُغلى عليهن (والاثافي المناصب) فقال أبوالعباس : برئت من قرابتي من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إن كنت سمعت هذا منك في حديثك ، فقلت : وأخبرتك أن الاربع من النساء شر مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه ، قال : والله ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبلَ هذا . قلت : بلى والله . فقال السفّاح : ويلك تكذبني ؟ قلت : وتريد أن تقتلني يا أمير المؤمنين . قال : استمر في حديثك. قلت : وأخبرتك أن أبكار الجواري كالرجال . قال خالد : فسمعت الضحك من وراء الستر . فقلت : نعم وأخبرتك أن بني مخزوم رياحينُ قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين وأنت تطمع بعينك إلى حرائر النساء وغيرهن من الاماء ، فسمعت من وراء الستر

قائـلة تقول : صدقت والله يا عماه وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ولكنـه بدّل وغير ونطق عن لسانك ، فقال السفاح : مالك ، قاتلك الله وأخزاك ، وفعل بك وفعل ؟.. فتركته وخرجت منسلاً وقد أيقنت بالحياة . وما شعرت إلا برسل أم سلمة قد صاروا الي ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت ثياب وبرذون .

وولد للسفاح من أم سلمة ابن وبنت هما محمد وريطة ، فالابن سماه باسم أبيه والبنت سماها باسم أمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية ، وقيل رائطة ، وتوفي أبو العباس السفاح في آخر سنة ١٣٦ بمدينته عن إحدى وثلاثين سنة ، ودفن قرب الانبار وقد زال قبره وعفا .

ومما يؤثر من أخبارها أن أبا دلامة زند بن الجون الشاعر الكوفي الاسود دخل عليها بعد وفاة أبي العباس فعزاهـا به وبكى وبكت معه ثم أنشدها قوله :

من مجمل في الصبر عنك فلم يكن
صبري عليك غـداةَ بنت جميـلا
يجدون أبدالاً بـه وأنا امرؤ
لو مت وجـداً ما وجدت بديـلا
إني سألت النـاس بعـدك كلهم
فوجـدت أجود من سألت بخيـلا

فقالت أم سلمـة : لم أر احداً أصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامـة . فقال : لسنا بسواء يرحمك الله ، لك منه ولد وما ولدت أنا منه ، فضحكت ، وقالت له : لو حدثت الشيطان

لاضحكته . ولم تكن منــذ مات السفاح ضحكت إلا ذلك الوقت .

وتزوجت أم سلمة بعد السفاح زوجـاً رابعاً هو عبدالله ابن عبد الحميد المخزومي ، وصار اليـه مال عظيم وأصبح موسراً وكان يجزل عطايا الشعراء ثم إنها اتهمته بجارية لها فاحتجبت عنه ولم تعد اليه حتى مات . أما أم سلمة فاني لم أقف على تاريخ وفاتها ، على أنها كانت طويلة العمر كثيرة الازواج .

الخيزران زوجة المهدي

وأم هرون الرشيد

كانت هذه السيدة المستفيضة الاخبار ، المستغربة السيرة ، في اول امرها ، جارية مملوكة من مولدات اليمن . اشتراهـا محمد المهدي من نخاس اي دلال يبيع المماليك . وقيل انها كانت قبل انتقالها الى عصمة الخليفة المهدي لرجل من قبيلة ثقيف ، فقالت ذات يوم لمولاها الثقفي : اني رايت في المنام كيت وكيت ، وكانت قد رأت الشمس والقمر يبزغان من جسدها ، فقال لها : لست من جواري مثلي ، انت تلدين خليفتين ، فقدم بها مكة فباعها في الرقيق أي المماليك ، فاشتريت وعرضت على ابي جعفر المنصور ، فقال لها : من أين أنت ؟ قالت : مولدي مكة ومنشئي بجرش ، وجرش صقع من اصقاع اليمن ، قال : افلك احد ؟ قالت : ما لي احـد إلا الله ، وما ولدت أمي غيري . فقال المنصور لاحد غلمانه : اذهب بها إلى المهدي وقل له : انها تصلح للولد . فأتي بها المهدي فوقعت منه كل موقع . والرواية الاولى — اعني كونَ المهدي مشترياً لها — مؤيدة بما ذكره ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتاب « الاذكياء » فقد ذكر فيه انه لما عرضت الخيزران على المهدي قال لها : والله

يا جارية انك لعلى غاية المتمني ، ولكنك حمشة الساقين (يعني دقيقة الساقين) فأجابته بجواب دل على ذكاء وفطنة فيها ، فقال : اشتروها لي فاشتروها ، فحظيت عنده وولدت له موسى الهادي وهرون الرشيد . وصارت أم خليفتين ، ونادر في التاريخ ان تكون امرأة أم خليفتين فهي مثل ولادة ام الوليد وسليمان ابني عبد الملك بن مروان .

ولما تمكنت عند المهدي ورأت ان في ابنيها موسى وهرون ما يعصمها من كل تغير منه عليها باحت بالحقيقة وقالت له : ان لي اهل بيت بجرش في اليمن ، فقال المهدي : ومن لك من الاهل ؟ قالت : لي اختان ، اسم احداهما « اسماء » واسم الاخرى « سلسل » ولي ام وأخوان ، فكتب المهدي باحضار اهلها فأحضروا ، فتزوج اخوه جعفر بن المنصور « سلسل » فولدت منه « زبيدة » المشهورة التي تزوجها هرون الرشيد ، وبقيت اسماء عذراء برهة حتى تزوجها المهدي بحيلة احتالها على الخيزران ، وذلك أنه لما عزم على هذا الامر قال للخيزران : قد ولدتِ لي رجلين وقد بايعت لهما بالخلافة من بعدي ، وما احب أن تبقي امة أي مملوكة ، واحب ان اعتقك ثم تخرجين الى مكة وتقدمين فأتزوجك . قالت : الصواب رأيت يا أمير المؤمنين ، فأعتقها وصارت حرة وخرجت الى مكة ، فانتهز المهدي هذه الفرصة فتزوج اسماء ومهرها مليون درهم ووهب لها مليون درهم اخرى ، ولما احسّ بقدوم الخيزران من مكة خرج لاستقبالها ، وكانت الأخبار بزواجِهِ أختها قد بلغتها ، ويئست منه

لان الشريعة قد حرمت الجمع بين الاختين كما هو معلوم ، فلما رأته قالت له : ما خبر اسماء وكم وهبت لها ؟ قال : من أسماء ؟ قالت : امرأتك . قال : إن كانت أسماء امرأتي فهي طالق . فقالت الخيزران : طلقتها حين علمت بقدومي . قال : أما إذ علمتِ فقد مهرتها الف الف درهم ووهبت لها الف الف درهم، ثم عقد المهدي على الخيزران وتزوجها . وأخبارها كما قلنا مستفيضة ، فمن ذلك ما ذكره الواقدي قال : دخلت يوماً على الخليفة المهدي فدخل الى دار الحرم ثم خرج متنكراً ممتلئاً غيظاً ، فلما جلس قلت : يا أمير المؤمنين خرجت على خلاف الحال التي دخلت عليها ! فقال : نعم ، دخلت على الخيزران ، فوثبت عليّ ومدت يدها إليّ ومزقت ثوبي وقالت لي : يا قشّاش ، أي خير رأيت منك ؟ وانا اشتريتُها من نخاس ورأت مني ما رأت وعقدت لابنيها ولاية العهد . ويحك أفأنا قشاش ؟ قال الواقدي : فقلت : يا أمير المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن النساء يغلبن الكرام ويغلبهن اللئام » وقال : « خيركم خيركم لاهله وأنا خيرُكم لاهلي » وقال : « قد خلقت المرأة من ضلع عوجاء إن قومتها كسرتها » وحدثته في هذا الباب بكل ما حضرني ، فسكن غضبه وأسفرَ وجهه وأمر لي بألفي دينار وقال : أصلح بهذه من حالك ، فأخذتها وانصرفت ، فلما وصلت الى منزلي وافاني رسول من الخيزران فقال لي : تقرأ عليك ستي السلام وتقول لك : يا عم قد سمعت جميع ما كلمت به أمير المؤمنين فأحسن الله جزاءك ، وهذه الفا دينار إلا عشرة

دنانير بعثت بها اليك لاني لم أحب أن أساوي بين صلتي وصلة أمير المؤمنين . ووجهت إليّ بأثواب .

وهـذا الخبر يدل على صرامتها وقوة قلبهـا وغلبتها على المهدي ، وقد دام سلطانها عليه حتى وفاته سنة ١٦٩ هـ ، وولاية ابنها موسى الهادي للخلافة ، ثم انها أرادت أن تستبد بأمور الخلافة في عهد ابنها الهادي ، وتدخلت في كثير من الشؤون ، فهي أولى سيدات البلاط العباسي اللائي تحكمن في الدولة ، وزاولن السياسة والولاية ، وقيل : إن الهادي لما صارت اليه الخلافة نابذها ونافرها لأنه رآها تفتئت عليه في أموره (اي تفعل من دون رأيه) ، وتسلك به مسلك أبيه المهدي من قبله في الاستبداد بالامر والنهي ، فأرسلَ اليها ذات يوم يقول : « لا تخرجي من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فانه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك ، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلك ، ولك بعد هـذا طاعة مثلك فيما يجب لك » ، وكانت كثيراً ما تكلمه في الحوائج ، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله قياماً بحق الامومة وبراً بها ، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته ، وانثال الناس على بابها وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى حضرتها ، حتى لقد رسم أصحابُها أن لا يقف أحد ببابها راكباً دابته ، كائناً من كان بل يجب عليه النزول ، وكلمت ابنها يوماً في امر لم يجد إلى اجابتها اليه من سبيل ، فاحتج بحُجة ، فقالت له : لا بد من اجابتي اليها . قال : لا أفعل . قالت : فاني قد تضمنت هذه الحاجة لعبدالله بن مالك المالكي ، وهو من رجال

الدولة العباسية . فغضب موسى الهادي وقال : ويلي على ابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قضيتها لك . قالت : إذن والله لا أسألك حاجةً أبداً . فقال : إذن والله لا أبالي . وحمي وغضب ، فقامت مغضبة . فقال لها : مكانك تستوعي كلامي والله وإلا فأنا نفي من قرابتي من رسول الله - ص - لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي او أحد من خاصتي او خدمي لاضربن عنقه ولاقبضن ماله ، فمن فعل فليلزم ذلك ، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك في كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك او بيت يصونك ، إياك ثم إياك ، ما فتحت بابك لملّي او لذمّي ، فانصرفت من عنده ما ترى شيئاً مما في طريقها ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها ، ومالت كل الميل الى ابنها هرون الرشيد .

وقيل إنه بعث اليها بلون من ألوان الطعام وأرسل يقول لها : أكلت منه فاستطبته ، فكلي منه ، وكان الطعام مسموماً ، فقالت لها جاريتها خالصة : أمسكي حتى تنظري فاني أخاف ان يكون فيه شيء تكرهينه ، فجاؤوا بكلب فأكل منه فتساقط لحمُه ، فأرسل اليها بعد ذلك يقول : كيف رأيت الطعام ؟ فقالت : وجدته طيباً ، فقال : لم تأكلي منه ولو أكلت لكنت قد استرحت منك ، متى أفلح خليفة له أم ؟

وجمع يوماً القواد الذين يأتون باب الخيزران فقال لهم : ايما خير انا ام انتم ؟ قالوا : بل انت يا امير المؤمنين ، قال : فأيما خير أمي أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا امير المؤمنين .

قال : فأيكم يحب ان تتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقولوا : فعلت أم فلان وصنعت أم فلان؟قالوا : ما احد منا يحب ذلك . قال : فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة ، فشق عليها ذلك فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة ، ثم انه أراد ان يخلع أخاه هرون الرشيد من ولاية العهد ويبايع لابنه جعفر ، فخافت الخيزران على هرون منه فدست اليه من جواريها وهو مريض من قتلنه بالغم والجلوس على وجهه فاختنق . على انه قد اشتهر في الاخبار خروج بثرة اي قرحة في جوفه كانت سبباً في موته . وقيل ان علته بقيت ثلاثة ايام فقتلته في شهر ربيع الاول من سنة « ١٧٠ » . وولي الخلافة بعده اخوه هرون الرشيد ، وللخيزران اخبار وحوادث جرت لها في ذلك العهد ، مذكورة في مظانها .

وقد توفيت الخيزران في خلافة ابنها الرشيد سنة ١٧٣ ، ودفنت في احدى مقابر الرُصافة وهي مقبرة الامام ابي حنيفة ، وكانت البانوقة بنت المهدي قد دفنت فيها قبل الخيزران ، ثم اشتهرت المقبرة بمقبرة الخيزران ، واصل بلدة الاعظمية الحالية هي مقبرة الخيزران المذكورة ، ومن العادة عندنا نحن المسلمين ان تتحول مقابرنا الى بلدان .

ريطة بنت السفاح

وزوجة الخليفة المهدي

هذه السيدة العباسية ، هي ريْـطة بنت ابي العباس السفاح زوجة الخليفة المهدي ، اما اسمها « ريطـة » فهو مأخوذ من الريطة المنسوجة وهي الملاءة اي النفنوف بهيئة قطعة واحدة ، لا بلفقين كالزبون والصاية ، وقيل هي كل نسيج من الملابس رقيق ليّن ، فريطة اسم يدل على اللطافة والرقة والنعومة .

وقد اشتهرت من السيدات العباسيّات ريطتان : ريطة بنت السفاح هذه ، وريطة بنت العباس بن عليّ زوجة المتوكل على الله العباسي ، وهي التي أراد المتوكل منها ان تطم شعرها وتجعله قصيراً على مودة الجواري المملوكات في ذلكم الزمان ، فأبت وامتنعت ان تغير شعرها ، فاعلمها انه يطلقها إن لم تفعل ذلك ، فاختارت الطلاق فطلقها .

وأما ريطة بنت السفاح فقد توفي والدها السفاح سنة ١٣٦ هـ ، على ما هو معروف ، ولم يكن له غيرها وغير ابن اسمه محمد ، وكان أيّداً شديداً قوياً وولاه عمه ابو جعفر المنصور مدينة البصرة ، وكانت اخته ريطةُ قوية ايضاً بخلاف اسمها الدال على اللطافة والرقة والنعومة . قيل كان محمد بن السفاح يلوي العمود

الحديد ، ثم يلقيه إلى أخته ريطة فتعدله وتقومه كما كان .

تزوّج ريطة هذه ابنُ عمها المهديّ في خلافة ابيه المنصور ، وكان ذلك في سنة ١٤٤ وولدت له ولدين ذكرين هما عبدالله ابن المهدي وعلي بن المهدي . واخبار هـذه السيدة العباسية قليلة ، وهي قبل زواجها اقل ، فمن الاخبار الطريفة التي لها شأن فيها ، ان ابا دلامة زند بن الجون الشاعر الاسود ، كان على اتصاله بأبي جعفر المنصور كارهاً للصلوات مستهتراً بشرب الخمر ، فألزمه المنصور القيام بفرائض العبادات في شهر رمضان خاصة ، فقال له ابو دلامة « البلية في شهر أصلح منها في طول الدهر » . فكان المهدي بن المنصور يبعث اليه في شهر رمضان في كل ليلة حرسياً يجيء به للعبادة ، فشق ذلك عليه وفزع الى الخيزران وكل اصحاب المهدي ليشفعوا له في الاعفاء من القيام في هذا الشهر المبارك ، فلم يجبهم المهدي الى طلبهم ، فقال له أبو عبيد الله معاوية الاشعري الكاتب : الدال على الخير كفاعله فكيف شكرك ؟ قال : أتم شكر . قال : عليك بريطة زوجة المهدي فانه لا يخالفها . فقال ابو دلامة : صدقت والله . ثم رفع اليها رقعة يقول فيها :

أبلغا ريطة أني كنت عبداً لابيها
فمضى يرحمه الله وأوصى بي اليها
وأراها نسيتني مثل نسيان أخيها
جاء شهر الصوم يمشي مشية ما أشتهيها
قائداً لي ليلة القدر كأني أبتغيها

تنطح القبلة شهراً	جبهتي لا تأتليها
ولقد عشت زماناً	في فيافيَّ وجيها
في ليالٍ من شتاء	كنت شيخاً اشتهيها
قاعداً أوقدُ ناراً	لضِباب اشتويها
وصبوح وغبوق	في علاب احتسيها
ما ابالي ليلة القد	ر ولا تسمعنيها
فاطلبي لي فرجاً منها	وأجري لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت وارسلت اليه بجواب تقول فيه: « اصطبر حتى تمضي ليلة القدر » فكتب اليها « اني لم اسألك ان ان تكلميه في اعفائي عاماً قابلا ، واذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر » . وكتب تحت ذلك هذه الابيات :

خافي الهك في نفس قد احتضرت	قامت قيامتها بين المصلينا
ما ليلة القدر من همي فاطلبها	اني اخاف المنايا قبل عشرينا
يا ليلة القدر قد كسرت ارجلنا	يا ليلة القدر حقاً ما تمنينا !
لا بارك الله في خير أؤمله	في ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الابيات ضحكت ودخلت الى المهدي ، فشفعت له اليه وانشدته الشعرين ، فضحك المهدي حتى استلقى ودعا بابي دلامة وكانت ريطة معه في حجلة (والحجلة بيت مزين كقبة العروس) فاخرج المهدي رأسه اليه وقال له : قد شفّعنا ريطة فيك وامرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال ابو دلامة : اما شفاعة سيدتي فيّ حتى اعفيتني فاعفاها الله من النار ، واما السبعة الآلاف فما اعجبني ما فعلته ، اما ان تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة آلاف ، واما

ان تنقصني منها الفين فتصير خمسة آلاف ، فاني لا اعلم حساب السبعة ، فقال المهدي : قد جعلتها خمسة آلاف . قال ابو دلامة : اعيذك بالله ان تختار ادنى الحالين وانت انت . فعبث بـه المهدي . ثم كلمته ريطة فيه ، فاتمها له عشرة آلاف درهم ، فأحيل على الخازن واخذها .

ومن اخبار ابي دلامة معها انها وعدته مرة ان تعطيه جارية ، فمطلته ولم تنجز الوعد ، حتى امتدحها بعدة قصائد ، كل ذلك وهي لا تفي له بالوعد ، ثم خرجت من بغداد الى مكة حاجـة ، فحجت ورجعت ، وكانت لها جارية يقال لهـا ه ام عبيدة ، وكانت برزة تخرج وتكلم الرجال وتبلغ رسائل سيدتها ريطة ، فقال ابو دلامة لام عبيدة حين عيل صبره ووهن احتياله :

ابلغي سيـدتي ان	شئت يا ام عبيـده
انهـا ارشدها اللـه	وان كانت رشيده
وعـدتني قبل ان تخـرج	للحج وليـده
فتنظّرت وارسـلـت	بعشرين قصيـده
كلما تخـلق اولى	بدلت اخرى جديده
انني شيخ كبير	ليس في بيتي قعيده
غير مثل الغول عندي	ذات اوصال مديده
وجهها اسمـج من حوت	طري في عصيده
ذات رجل ويد كلتاهمـا	مثـل القديـده

فدخلت ام عبيدة على السيدة ريطة فانشدتها الشعر ، فامرت له بجارية ومائتي دينار للنفقة عليها .وفي المحرّم من سنة ١٦٩ ه توفي الخليفة المهدي

وولي الخلافة ابنه موسى الهادي ، وكانت الزندقة مستفحلة في عهد ابيه وعهده ، وكلاهما جد في طلب الزنادقة وقتلهم ، وكان من مشاهير الزنادقة يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب الهاشمي ، وكان المهدي قد علم بزندقته واراد قتله ، فحال بينه وبين ذلك انه كان قد جعل على نفسه لله عهداً ألا يقتل هاشمياً ان ولي الخلافة ، واوصى ابنه موسى الهادي بقتله في اول خلافته ان ولي الخلافة ، فلما تولاها امر ان يخنق يعقوب بين الفرش فخنق ، وكان ليعقوب الزنديق هذا امرأة غير هاشمية اسمها خديجة ، وكانت زنديقة كزوجها ، وكان له من الاناث ابنتان احداهما تسمى فاطمة ، فوجدت حبلى من ابيها ، فارسل الهادي بها وبخديجة الى السيدة ريطة لتعلم حقيقة الحال وتخبره بها فرأتها مكتحلتين مختضبتين ، فلامتها ريطة وابنتها ووبختها اقبح التوبيخ على تزندقها ، واكثرت اللوم على فاطمة في كونها حبلى من ابيها ، وذهابها مذهب الاباحة ، فقالت فاطمة : أكرهني ابي وارتكب مني ما ارتكب . فقالت لها ريطة : فما هذا الخضاب والكحل والسرور ان كنت مكرهة ؟! لعنك الله ، ثم امر بها وبخديجة فضربتا على رؤوسهما بشيء يقال له الرعبوب ، حتى هلكتا من الالم والفزع .

وقد جاء في اخبار السيدة ريطة ان ابا دلامة الشاعر الاسود الذي ذكرناه قبل هذا ، انشدها ابياتاً عند وفاة ابيها السفاح ، الا ان المحققين رفضوا ذلك ، وذكروا انه انشدها ام سلمة بنت يعقوب بن سلمة وقد ذكرناها .

وادركت السيدة ريطة عدة شهور من خلافة الرشيد وماتت ببغداد ، وقيل إنهـــا توفيت في اواخر ايام موسى الهادي سنة ١٧٠ ، والفرق بين القولـين قليل لا يتجاوز عدة اشهر ، واذ كانت ولادتها مجهولة التاريخ ، لم نستطع معرفة عمرها ، الا اننا ذكرنا انها تزوجت سنة ١٤٤ ، فان قدرنا انها تزوجت وعمرها « ١٦ » ، سنة كان عمرها اربعين سنة ، وذلك يعني انها ماتت قبل ان تخلع ثوب الشباب ، ونظن انها دفنت في مقابر قريش اي الكاظمية الحالية لانها كانت قرشية عباسية .

عُليّـــة بنت المهدي

واخت هرون الرشيد

هذه السيدة خالدة الاسم مع صاحبات الفنون الرفيعة في العالم ، بل هي اشهر العباسيات من بيت الخلافة في تاريخ الفنون . على أن كونها بنت خليفة واخت خليفتين وزوجة امير ، لم يكن يضمن لها اشتهار السيرة ، ولا كرامة الاخبار ، ولا براعة الآثار ، لولا الشعر والغناء ولا سيما الغناء ، فانها بلغت فيـه المحل الاسمى من الاجادة والاتقان . وما ادراك ما الغناء ؟ قلما تجد روحاً مستغنية عنه ، حتى الصوفية واهل التكايا والزوايا ، لا يستغنون عنه ابداً ، وليس من السهل ان يكون الانسان بارعاً فيـــه .

كانت ام علية جارية مغنيـــة اسمها مكنونة ، والمكنونة صفة للدرة العظيمة ، واللؤلؤة الوسيمة ، وكانت في اول امرها مملوكةً لزوجة احد بني العباس بالمدينة المنورة ، معروفة بالجمال والوسامة ، فاشتراها المهدي ابن ابي جعفر المنصور في حياة ابيـه بمائة الف درهم ، وهي زهاء عشرة آلاف دينار وستر امرها عن ابيـــه المنصور حتى مات وصار هو خليفة بعده ، وكانت عنده الخيزران ام الهادي والرشيد والبانوقة ، فاستولت عليه واستأثرت به حتى كانت الخيزران تقول : ما ملك المهدي امرأةً اغلظ عليّ من مكنونة .

وفي سنة « ١٦٠ هـ » ولدت المكنونة للمهدي طفلة ، فسميت عُلية « تصغير عَلية » ونشأت في بيت الخلافة العباسية ببغداد ، وهذبت وادبت ، وصارت تقول الشعر الجيد ، وتصنع اصوات الغناء البارعة ، قال اسماعيل بن ابراهيم الكاتب ورواه عنه ابو الفرج الاصفهاني « كانت عُلية حسنة الدين وكانت لا تغني ولا تشرب النبيذ الا اذا كانت معتزلة للصلاة - يعني الاعتزال الشرعي - قال : فاذا طهرُت اقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ، فلا تلذ بشيء غير قول الشعر في الاحيان ، الا ان يدعوها الخليفة الى شيء - يعني الغناء - فلا تقدر على خلافه ، وكانت تقول : ما حرم الله شيئاً الا وقد جعل فيما حلل منه عوضاً ، فبأي شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرُماته ؟ وكانت تقول : لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط ، ولا اقول في شعري الا عبثاً ، ولما مات ابوها المهدي انقطع اليها ابو حفص عمر بن عبد العزيز الشطرنجي الشاعر مولاهم .

وقد ذكروا انها كانت من احسن الناس واظرفهم ، ولكن جبينها كان واسعاً سعة تذهب جمال وجهها ، فاتخذت عصابة مكللة بالجوهر لتستر بها جبينها ، وبذلك احدثت سبراً اي مودة ، من احسن المودات التي ابتدعتها النساء لرؤوسهن ، والغالب في مودة النساء ان يكون المراد بها ستر عيب من عيوب ابدانهن ، ثم يغلب التقليد على سائر النساء ، فمنهن من يُضعن شيئاً من جمالهن باتباع السبر الجديد اي المودة الجديدة ، فيخسرن من حيث يأملن الانتفاع ، ويسمجن من حيث يتوخين الوسامة

والجمـــال .

ولقـد ذكرت في كلامي على سيرة العباسة بنت المهدي ان المهدي كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ، وان ابنته البانوقة كانت تسير راكبة بين يديه سافراً على هيئة الجند . وانما قد مال الى التحرير النسوي بسبب ما رآه بين امه ام موسى بنت منصور الحميرية وابيه ابي جعفر المنصور ، فان امه اشترطت على ابيه ان لا يتزوج عليهـــا ولا يتخذ سرية ، وكتبت عليه بذلك كتاباً اكدته واشهدت عليه الشهود والثقات المعدلين . فبقي عشر سنوات من خلافته يكتب الى الفقهاء من اهل الحجاز واهل العراق ، يستفتيهم في الزواج عليها وابتياع الجواري السراري . وكانت ام موسى اذا علمت مكان الفقيه بادرته وارسلت اليه بمال فلا يفتي المنصور بما يريد . ولم يستطع المنصور ان يخل بشرائطها طول حياتها . ثم ان في التاريخ مـا يدل على ان المرأة القحطانية كالحميرية المذكورة وغيرها اكثر حرية واستقلالاً من المرأة العدنانية ، سواء ذلك في الجاهلية والاسلام .

فلا عجب اذن في نشأة عُلية وغيرهـا من النساء المتحررات في بيت الخليفة المهدي ، ومما اغرم عُلية بالغناء اقبال اخيها لابيها ابراهيم بن المهدي على هذا الفن الجليل وصيرورته رأساً فيه واستاذاً ، حتى قال الناس : ما اجتمع في العصور الاسلامية قط اخ واخت ، احسن غناءاً من ابراهيم بن المهدي واخته علية ، ولكنها سبقته في ذلك ، فكانت اذا غنت تكاد تحرك الحجر وتطير الوقور ، وتستخف ارباب العقول الراجحة ، وتقتل النفوس المغرمة طرباً .

ولقد كان الناس في عصرها يقولون ايضاً : لم ير في جاهلية ولا اسلام احسن غناءاً منها ومن اخيها ابراهيم .

ولكنها لم يكن يسمعها الا اهلها ، وكانت قد تزوجها الامير موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب ، وحجت بيت الله الحرام في ايام خلافة اخيها الرشيد ، وخرجت معه نحو الري مرة ، فلما بلغت بلدة المرج بين خانقين وهمذان عملت بيتين وصاغت فيهما لحناً من مقام الرمل وغنت بهما وهما :

ومغترب بالمرج يبكي لشجوه   وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما اتاه الركب من نحو ارضه   تنشق يستشفي برائحة الركب

فلما سمع الرشيد الصوت علم انها قد اشتاقت الى العراق واهلها فيه ، فردها الى بغداد ، وكان الرشيد يصطاف ببلدة الرقة من الجزيرة الفراتية فاشتاق الى اخته علية مرة فكتب الى خال ابيهما يزيد بن منصور الحميري في اخراجها اليه فذهب بها الى الرقة فقالت في طريقها :

اشرب وغن على صوت النواعير   ما كنت اعرفها لولا ابن منصور
لولا الرجاء لمن امّلت رؤيته   ما جزت بغداد في خوف وتغرير

وعملت فيهما لحناً في مقام الثقيل الاول – كما كانوا يقولون في ذلكم الزمان .

وزارها اخوها الرشيد ذات يوم فقال لها : بالله يا اختي غنيني . فقالت : وحياتك لاعملن فيك شعراً ولاصنعن فيه لحناً ، فقالت من وقتها :

تفديك اختك قد حبوت بنعمة   لسنا نعُد لها الزمانَ عديلا

لا زال قربك والبقاء طويلا الا الخلود وذاك قربك سيدي
فرأيت حمدي عند ذاك قليلا وحمدت ربي في اجابة دعوتي

وصنعت فيه لحناً من وقتها في مقام خفيف الرمل ، فطرب الرشيد عليه . ولها اخبار حسان مع اخوتها ابراهيم وهرون ويعقوب بني المهدي ، وابني اخيها الامين والمأمون . وذكر لها مؤرخو الغناء العربي اثنين وسبعين صوتاً ، وذكروا ايضاً انها كانت تحب المراسلة بالشعر ، فهي ان لم تكن اول من ابتدع هذا الفن من المراسلة ، فهي من اوليات متبعاته . والمراسلة بالشعر فن من فنون الادب العربي ، يجب ان يدرس مستقلاً .
وقالوا : انها كاتبت مملوكاً لاخيها الرشيد اسمه طل -- على نحو ما يفعل السادة المتواضعون مع عبيدهم – فمنعها الرشيد من ذلك خشية قالة السوء ، لان الناس يسيئون الظنون ويجعلون الاراجيف كالذي رأته العيون ، ولقد نحلها الرواة شعراً لغيرها ، لانها لحنته وغنت به ، ولان منهم من يريد تقبيح اخبارها ، والانتقام من اهلها ، قالوا : انها نظمت شعراً في المملوك طل وغنت فيه وصحفت اسمه الى « الظل » وفي رواية انها قالت شعراً في مملوكها رشأ وكنّت عنه بزينب وريب ، الى غير ذلك مما هو سهل التلفيق صعب التحقيق . على ان العدو اذا اراد مقالاً في عدوه وجد له مجالاً ، وفي علية واخيها ابراهيم قال ابو فراس الحمداني مثرباً على بني العباس ومعرباً ومجيباً لابن سكرة العباسي في افتخاره على بني علي :

شيخ المغنين ابراهيم او لهم ؟ منهم علية ام منكم وهل لكم

اذا تلو آية غنى امامكم « قف بالديار التي لم يعفها قدم »

وهذا باب واسع لا ينتهي الداخل فيه الى غاية ولا يصل الى نهاية ، فلا تقاس الاسر بالافراد ، ولا يصح الفخار بالاخيار ، ولم يسلم قبيل من المثالب والمعايب ، الا ان القول الصحيح مع مرور الزمان هو قول ابن حازم الباهلي :

ومن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطـل

وكانت علية تتستر من الاجانب ، ولا تكلمهم الا من وراء حجاب ، فقد ذكر اسحاق بن ابراهيم الموصلي الاديب المغني انه عمل في ايام هرون الرشيد لحناً في هذين البيتين :

سقياً لأرض اذا ما نمت نبهني بعد الهدوء بها قرع النواقيس
كأن سوسنها في كل شارقـة على الميـادين اذناب الطواويس

وعزم على ان يباكر بـه الرشيد ، قال اسحاق : فلقيني في طريقي خادم لعلية بنت المهدي فقال : مولاتي تأمرك بدخول الدهليز اي المجاز ، لتسمع من بعض جواريها غناءاً كانت اخذته عن ابيك وشكت فيه الآن ، قال اسحاق : فدخلت مع الخادم الى حجرة قد أفردت لي كأنها معدة لذلك ، فجلست فيها ، وقدم لي طعام وشراب فنلت حاجتي منهما ، ثم خرج الي خادم فقال : تقول لك مولاتي : انا اعلم انك قد غدوت الى امير المؤمنين بصوت قد اعددته له محدث ، فاسمعنيه ولك مني جائزة تتعجلها ، فلعـل امير المؤمنين لا يأمر لك بشيء او لا يقع الصوت منـه بحيث توخيت ، فيذهب سعيك باطلا ، قال اسحاق : فاندفعت فغنيتها الصوت ولم تزل تستعيده مراراً ، ثم اخرجت الي عشرين الف

درهم وعشرين ثوباً ، وقالت : هـذه جائزتك ، ثم قالت : اسمع الصوت مني الآن فغنته غناءاً ما دخل سمعي مثله .

وان الانسان العاقل ليستغرب أول وهلة ولع هـذه السيدة العباسية بالغناء، ويراه مخلاً بمقامها الهاشمي العباسي ، وحاطاً من منزلتها، من حيث كونها بنت خليفة وأخت خليفة ، ولكن الأمر لم يكن كما تظن من السماجة وخرق الناموس ، لأن الحرية وحب الفن كانا قد بلغا في ذلكم العصر أعلى درجاتها ولا يعرف حب الفن التمييز بين الرفيع والوضيع ، ولا يختلف فيه الغني والفقير ، ولا يتضاد فيه الملك والسوقة ، ولقد تزيد الاخباريون في أخبار علية حتى المشهورون منهم كالاديب الكبير أبي الفرج الاصفهاني ، فقد ذكر في كتابه الاغاني وهو مفخرة الأدب العربي ، في موضع منه أن علية غنت ابن أخيها الخليفة عبد الله المأمون في دار حرمه وأهله أبياتاً أولها :

ما لي أرى الأبصار بي جافيه   لم تلتفت مني الى ناحيه ؟

وقال : ان الشعر والغناء لعلية بنت المهدي ، ثم ذكر ذلك في موضع آخر من كتابه وقال : الشعر لأبي العتاهية وذكر ابن المعتز أنه لعلية وذكر في موضع ثالث أن الشعر الذي غنت به أوله :

ليس خطب الهوى بخطب يسير   ليس ينبيك عنه مثل خبير

وروى أحد البرامكة وهم اعداء بني العباس ان جعفر يحيى البرمكي حضر مع الرشيد مجلساً من مجالسه وسمع علية تغني من وراء ستار وزعم ان جعفراً قال : فطربت والله طرباً هممت معه ان انطح برأسي

الحائط ، ثم رأى الرشيد يرقص فرقص معه ، وهذا الراوي هو محمد بن الوزير جعفر البرمكي ، ولا اعتماد عليه في مثل هذه الاخبار لانه كان موتوراً ، وقد وتره الرشيد بقتل ابيه جعفر البرمكي ، ولو كان جعفر استاذاً في الغناء لجاز لنا التصديق بالخبر ، اذ لا غضاضة في ان يسمع صوتها صاحب فن مثلها ليصلح غناءها ، كما يسمع الاستاذ تلميذه ، ليعرف موطن الضعف فيه فيتلافى امره .

ولما توفي اخوها الرشيد وكان ذلك سنة ١٩٣ هـ جزعت جزعاً شديداً وتركت الغناء ، فلم يزل بها محمد الامين حتى عادت اليه كالمجبرة المكرهة وغنته بأبيات نظمتها في مدحه وهي آخر شعر لها قالت فيها :

أطلتِ عاذلتي لومي وتفنيدي ... وأنتِ جاهلة شوقي وتسهيدي
لا تشرب الراح بين المسمعات وزُر ... ظبياً غريراً نقيّ الخدّ والجيد
قد نحته شمول فهو منجدل ... يحكي بوجنته ماء العناقيد
قام الأمين فأغنى الناس كلهم ... فما فقير على حال بموجود

وقد جاء في اخبارها ما يدل على خفة روحها ولطف فكاهتها وجمال نكتتها ، فقد ذكر اخوها وزميلها ومطارحها في الغناء ابراهيم بن المهدي انها اخجلته ذات يوم إخجالة نادرة ، وذلك انها كانت مريضة فدخل عليها عائداً لها فقال لها : كيف انت يا اختي جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟ فقالت له : بخير والحمد لله ، وكانت الى جانبها جارية من جواريها واقفة تطرد عنها الذباب ، فاستحلاها ابراهيم وظل ينظر اليها وطال

جلوسه عند اخته ، ثم احس ان اخته رأته ينظر الى الجارية ، فاستحيا واقبل على اخته فقال مرة ثانية : وكيف انت يا اخي جعلت فداءك وكيف حالك وجسمك ؟ فرفعت علية رأسها الى امرأة حاضنة لها كانت حاضرة وقالت : أليس هذا قد مضى مرة وأجبنا عنه ؟ فقام ابراهيم خجلا وانصرف ، وكيف لا يخجل من مثل هـذا الكلام الدال على البراعة في التنكيت والتبكيت ؟

أما شعر علية وقد ذكرنا منه قبل هذا، فكان من الشعر الجيد الصادق ولو قالت عن نفسها : ولا اقول في شعري الا عبثا ، ففي هـذا العبث الذي لم يدخله خوف ولا رجاء ولا استعطاء ولا تملق ولا فخر ،أحسن معاني القريض واخفى اهواء النفس الشاعرة واصح نزعاتها ، ولقد روى شعرها جماعة من كبار ادباء العرب قال : ابو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي : انشدنا ابو بكر بن الأنباري قال انشدنا ابراهيم بن عبد الله لعلية بنت المهدي :

تحبب فان الحب داعية الحب
وكم من بعيد وهو مستوجب القرب
تفكر فان حدثت ان اخا هوى
نجا سالماً فارج النجاة من الحب
فأحسن ايام الهوى يومك الذي
تروّع بالتحريش منه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى
فأين حلاوات الرسائل والكتب ؟

وهذا شعر محبة مجرّبة مجرّبة ،ما نجت من بأس الحب فنصحت للناس

بان لا يكابدوه ، ولا يقاربوا أسبابه ان لم يتحملوا عذابه ، وعلى هذا المعنى جرى عمر بن الفارض الصوفي في قوله :

هو الحب فاسلم بالحشا مـــا الهوى سهل
فما اختاره مضنى بـه وله عقل
وعش خالياً فالحب راحتـــه عناً
واوله سقـــم وآخره قتـــل

ومن شعرها المغنى به :

نام عـــذالي ولم أنم واشتفى الواشون من سقمي
واذا ما قلت بي ألم شك من اهواه في ألمي

ومنه قولها :

يا ربـة المـــنزل بالبرك وربة السلطـــان والملك
تحرجي بالله من قتلنا لسنا من الديـلم والترك

ومنه قولها :

يا واحـد الحب مالي منـك اذ كلفت
نفسي بحبـــك الا الهم والحزن
لم ينسنيك سرور لا ولا حزن
وكيف لا ، كيف ينسى وجهك الحسن
ولا خلا منـك قلبي ولا جسدي
كلي بكلك مشغول ومرتهن
نور تولد من شمس ومن قمر
حتى تـكامل منه الروح والبدن

وقولها :

بني الحب على الجور فلو أنصف المعشوق فيه لسمج
ليس يستحسن في حكم الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج
لا تعيبن من محب ذلة ذلة العاشق مفتاح الفرج
وقليل الحب صرفاً خالصاً لك خير من كثير قد مزج

وقالت مرة للرشيد وقد طلب أختها ولم يطلبها في أمر من أموره :

مالي نسيت وقد نودي بأصحابي
وكنت والذكر عندي رائح غادي ؟!
أنا التي لا تطيق الدهر فرقتكم
فرقٌ لي يا أخي من طول ابعاد

وغنت فيه لحناً من الثقيل الاول - كما كانوا يقولون - وبعثت الى الرشيد من غناه بحضرته فرق لها وأحضرها ، وهذا يدل على تقاطع وتهاجر حدث بينها وبين أخيها .

وكان لها وكيل يقال له سباع خان في وكالته واحتجن مالاً فوقفت على خيانته فضربته وحبسته ، وكان يظهر العفة ويتصدق رئاء الناس ، ثم اجتمع جيرانه اليها وكتبوا رقعة يتشفعون له اليها ويذكرون حسن سيرته وكثرة صدقته ، فوقعت فيها هذه الأبيات :

ألا أيهذا الراكب العيس بلغن سباعاً وقل إن ضم ركبكم السفر
أتسلبني مالي وان جاء سائل رققت له إن حطه نحوك الفقر ؟
كشافية المرضى بعائدة الزنا تؤمل أجراً حيث ليس لها أجر

وقالت في لبابة وهي ابنة أخيها علي بن المهدي :

وحدثني عن مجلس كنت زينه رسول أمـــين والنساء شهود
فقلت له كر الحديث الذي مضى وذكرك من ذاك الحديث أريد

وقد رأت علية خمسة خلفاء من اهلها ، هم أبوها محمد المهدي وأخواها موسى الهادي وهارون الرشيد ، وابنا أخيها محمد الامين وعبد الله المأمون ، وتوفيت ببغداد في خلافة المأمون سنة عشر ومائتين للهجرة لها خمسون سنة ، وكان سبب وفاتها أن المأمون ضمها اليه وجعل يقبل رأسها ، كما يفعل أبناء الأخ بعماتهم ، وكان وجهها مغطى فشرقت من ذلك وسعلت ، ثم أصابتها الحمى بعقب هذا أياماً قليلة وماتت ، وانطفأت بانطفاء حياتها شعلة فنية أدبية ، لا يدرك بهاءها إلا ارباب الفنون الرفيعة واولو الاذواق الفنية ، ولكنها تركت من الآثار والاخبار ما جعلها في مراتب الفنيين العالميين ، من جهة ، وصيرها كبرى الفنيات العربيات من جهـة اخرى ، فلقد خلت كتب الفنون من ذكر العباسيات إلا ذكرها ، وفي ذلكم فضل راهن لا يستطيع جحده الجاحدون واحدوثـة جميلة لا يقدر على نسيانها الذاكرون لأرباب الفنون .

العباسة بنت المهدي

هي العباسة بنت الخليفة المهدي ، أخت هرون الرشيد ، وسيرتها عقدة من عقد التاريخ الاسلامي ، ومشكلة من مشكلات الأخبار ، وعجيبة من عجائب السير ، فقد جعل القدر اسمها دريئة لأسماء العباسيات .

نشأت العباسة في بيت الخلافة ، وكانت أمها جارية من الجواري ، وكان لها من الأخوات البانوقة وسليمة وعلية ، ومن المؤرخين من سمى علية بالعالية ، خطب العباسة إلى أبيها الخليفة المهدي ، عظيم من عظماء بني العباس ، هو محمد بن سليمان بن علي ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، والي البصرة يومئذ ، فزوجه إياها ، وحملت اليه الى البصرة ، وإذ كانت ولاية المهدي للخلافة سنة ١٥٨ هـ ، علم أن انتقال العباسة إلى البصرة كان بعد هذه السنة ، أما زوجها فقد كان ولاه أبو جعفر المنصور البصرة ، ولما ثار فيها ابراهيم بن عبد الله العلوي الحسني وكان ذلك سنة ١٤٥ ، خرج عنها محمد بن سليمان العباسي هو وأخوه جعفر بن سليمان ، فولاه المنصور الكوفة ، ثم قلده المهدي البصرة سنة ١٥٩ وزوجه بابنته العباسة — كما ذكرنا آنفا ، وأضاف اليه الأهواز والبحرين وعُمان والسند واليمامة ، ولبث في هذه الولاية بعد

خلافة المهدي أيام خلافة الهادي ، وأدرك خلافة هرون الرشيد ، وكان يتولى أمور الحج احياناً إلى ولايته الاصلية ، وهو الذي تولى حرب الحسين بن علي بن الحسن العلوي الحسني بفخ على فرسخ من مكة ، فقتله وفض جمعه سنة ١٦٩ في خلافة موسى الهادي ابن المهدي .

وكان لمحمد بن سليمان هـذا بالبصرة خمسون ألف مولى من خول وغيرهم ، وتوفي بالبصرة سنة **١٧٣** في خلافة هرون الرشيد ، فاستولى هرون على ثروته العظيمة ومنها ستون مليون درهم ، وعلى ضياعه في البصرة وغيرها ، وكان لزوجته العباسة بالبصرة قطيعة أي مقاطعة جعلها لها أبوها المهدي . ذكرها البلاذري في فتوح البلدان ، ثم زوج هرون الرشيد أخته العباسة بابراهيم بن صالح بن علي العباسي ، وهو ابن عم زوجها الاول وذو القرابة القريبة من الرشيد ، وعلى كون العباسة قد تزوجت زوجين من بني العباس ودخلت في عصمتهما الواحد بعد الآخر ، أذيعت عليها في التواريخ قصة باطلة باردة هي قصة اتصالها بجعفر بن يحيى الفارسي البرمكي ، بعد عقد شرعي مزعوم عقده لهما أخوها هارون الرشيد ، على شرط عدم الاجتماع ، ولكن الاجتماع حصل من دون علم الرشيد وعلى غير اختيار من الوزير ، وهذه القصة الباردة رواها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تاريخه عن أحمد بن زهير بن حرب النسائي ، عن زهير بن حرب ، ونقلها بعده كثير من المؤرخين ، ولكن المرجع واحد أو اثنان .

وصورة القصة أن هارون الرشيد كان لا يصبر عن جعفر

البرمكي وعن اخته العباسة وكان يحضرهما إذا جلس للشراب ، فقال لجعفر : أزوجك أختي العباسة ليحل لك النظر اليها إذا أحضرتها مجلسي . وأمره أن لا يمسها . فزوجها منه على ذلك الشرط فكان يحضرهما مجلسه إذا عاقر الخمر ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما فيسكران من الشراب وهما شابان ، حتى آل الأمر الى ان حملت العباسة من جعفر البرمكي فولدت غلاماً ، فخافت على نفسها من اخيها الرشيد ، فبعثت بالمولود الى مكة ولم يزل الأمر مستوراً عن هرون ، حتى وقع خلف بين العباسة واحدى جواريها ، فأعلمت بامرها وامر الصبي هرون الرشيد واخبرته بمكانه ، فلما حج هرون حجة سنة ١٨٦ هـ أرسل الى موضع الصبي في مكة من اتاه به ، وسأل المتولية لتربيته فأعلمته حقيقة الامر وصح عنده قول الجارية ، فأراد قتل الصبي ولكنه تركه خوفاً من الاثم ، وفي عودته من مكة قتل جعفر البرمكي ونكب البرامكة وأودعهم السجون الا واحداً منهم ، واستصفى اموالهم وضياعهم .

واثر الاختلاق والتوليد ظاهر على هذه الحكاية ، لانها وضعت للانتقام من هرون الرشيد ، بما فعل بالبرامكة من قتل جعفر وحبس الآخرين وازالة سلطانهم ، والا فقد ذكرنا ان العباسة تزوجت زوجين وكانت تسكن البصرة في زواجها الاول ، ثم انها هاشمية عباسية ولم يكن هذا الفارسي كفؤاً لها ولا بعض كفء ، ولا عرف شيء مثل هذا في التاريخ ، وكيف يصح وقوع هذا من الرشيد وهو الذي يقول ، سألت ابي قلت له : من اكفاؤنا ؟ فقال : اكفاؤنا اعداؤنا . يعني بني امية ، فلم يكن يجوز للهاشمية

ان تتزوج الا هاشمياً او امويا ، وقـد تصرف المؤرخون والاخباريون بهذه القصة وزينوها وحسنوها وزوروا لها حواشي وذيولاً ، ومنهم من فطن الى ان العباسة كانت متزوجة فقال انها « فاختة بنت المهدي » ، كما جاء في كتاب الامامة والسياسة ، ومنهم من قال : انها ميمونة ، كما في اعلام النـاس ، وهو اضعف الكتب اخباراً ، وفريق جعل للعبـاسة من جعفر صبياً واحداً ، وفريق جعل لها ثلاثة صبية ، مات أحدهم صغيراً ، ومن اعجب ما نشأ عن هـذه القصة الباطلة التي أريد بها الانتصار للبرامكة ، وكونهم قتلوا ظلماً ونكبوا عدواناً ، ان آل مرا من قبيـلة طي ، كانوا في القرن السابع للهجرة يدعون انهم من ذرية جعفر البرمـكي من نسل ابن جعفر الذي ولدته العباسة ، وقال النسابة بدر الدين ابو المحاسن يوسف الحمداني ، بعد ذكره ان ربيعة الطـائيين كانوا في زمانه ملوك البر ما بين الشام والعراق والحجاز قال : ويقال ربيعة الآن انه من ولد جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، وهذا ليس بصحيح . ثم قال : « وزعموا انهم من ولد جعفر من اخت الرشيد ، التي عقـد له عليها - كما قالوا - لتخرج عليه ، فحبلت منه بغلام ، كان ربيعة طيء من بنيه ، وهذا الخبر ليس بصحيح ، وان كان صحيحاً فقـد دفنت المرأة وولدها - كما قيل في تمام الحكاية - ولم يعلم لهما أثر » وذكر ابن فضل الله العمري هـذه الدعوى وعابها على آل مرا لتركهم نسبهم العربي .

على ان أهل الانساب ذكروا ان هؤلاء الطائيين الذين ادعوا

انهم من نسل جعفر البرمكي ، جاءت منهم جماعة الى الحلة في اواخر عهد الايلخانيين بالعراق اي اوائل القرن الثامن للهجرة ، مع أمير طيء سليمان بن عيسى من آل مهنـــا ، وقد جعله المغول اميراً على الحلة ، فقالوا « نحن من بني جعفر بن ابي طالب الطيار وعدتنا نحو من اربعة آلاف فارس نحفظ أنسابنا ونتزوج في قبيلة طيء ، ولكن اكثرهم كانوا يجهلون انسابهم ويكتفون بانهم من نسل جعفر الطيار .

وأول من نبه على كذب قصة العباسة القاضي عبد الرحمن بن خلدون ، فقد عقد في مقدمة تاريخه العظيمة حق العظمة ، فصلاً في « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبـــه ، والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام ، وذكر شيء من أسبابها » قال فيه : ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة ، من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى البرمكي ، وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر ، اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصاً على اجتماعهما في مجلسه ، وان العباسة تحيلت على جعفر في التماس الخلوة به لما شغفها من حبه ، الى ان قال : « فحملت ووشي بذلك للرشيد فاستغضب ، وهيهات من منصب العباسة في دينها وابويها وجلالهـــا ... » حتى قال : « قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، بعيـــدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فاين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ، او اين توجد الطهارة والزكاء اذا فقد من بيتها ، وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها بمولى من موالي العجم ؟

ثم قال : « وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم ، على بعد همته وعظم آبائه » الى آخر قوله في الاستبعاد والاستغراب .

واستبعاد ابن خلدون لحادث العباسة لا يكفي في الدلالة على نفيه ودفعه ، وكان عليه ان يذكر من سيرتها كزواجها مرتين وسكناها البصرة مدة ما يؤيد دليله العقلي ليقترن دليل النقل ودليل العقل ، ثم ان إشارته الى مراتع الفواحش وضياع الصون والعفاف ، خارجة عما هو بسبيله ، ومباينة لموضوعه ، فان المؤرخين لم يذكروا ان العباسة زنت ولا تركت الصون والعفة ، وانما ذكروا ان عقدها كان مشروطاً بعدم الاجتماع ، وهو امر لا يثبت في الشرع ، بل تقتضيه الآداب ، وخصوصاً في مذهب الرشيد ، فقد كان من مذهبه ان العقد اذا دخله شرط فهو صحيح والشرط لغو ، ولذلك لم يطعن المؤرخون على جعفر من حيث المخالفة للشرع ، ولم يجدوا سبيلاً عليه ، فابن خلدون لم يحسن الدفاع ووقع فيما عابه على المؤرخين .

ومن الحقائق التاريخية ان المهدي بن ابي جعفر المنصور كان من الخلفاء الذين حرروا المرأة من الحصر والقصر ، وتلكم الحرية هي التي جعلت علية بنت المهدي على الحال المعروفة ، وستتحدث بهم اخبارها في حديث قابل ، وقد ذكر المؤرخون عن احد المعاصرين للمهدي العباسي ، قال : رأيت المهدي وقد دخل البصرة من قبل سكة قريش ، فرأيته يسير وابنته البانوقة بين يديه ، بينه وبين صاحب الشرطة ، عليها قباء اسود متقلدة سيفاً عليها منطقة رشاشية في هيئة الغلمان ، ورأيت في صدرها شيئاً من

ثدييها وقد رفعا قباءها لنهودها ، وكانت سمراء ، حسنة القد ، حلوة ، فلما ماتت وذلك ببغداد اظهر عليها المهدي جزعاً لم يسمع بمثله ، وجلس للناس يعزونه وامر ان لا يحجب عنه احد ، فأكثر الناس في التعازي .

فهذه صفة الحرية التي كانت عليها البانوقة بنت المهدي أخت علية ، فأين بداوة العروبة من زي البانوقة تلك العروبة التي زعم وجودها ابن خلدون للعباسة ، وهي اخت البانوقة الفارسية ، وهما اختا علية الاديبة الشاعرة المجاهرة ؟

وانما نستدل نحن على بطلان اجتماع جعفر بن يحيى البرمكي مع كل امرأة من حرم الرشيد ، بما ذكره المؤرخون من ان الرشيد قال لجعفر البرمكي يوم الجمعة آخر المحرم من سنة ١٨٧ « لولا اني عازم على الجلوس الليلة مع النساء لم افارقك ، فأقم انت في منزلك واشرب واطرب » ، وممن ذكر ذلك الطبري في تاريخه ، فلو كان صحيحاً ما اختلق المختلقون لم يقل الرشيد لجعفر ذلك القول ، ولجرت العادة على ما زعموه وولدوه .

فتعليل فتك هرون الرشيد بالبرامكة ، يجب ان يبحث عنه في غير قصة العباسة الباطلة ، كزندقة البرامكة وتحريضهم هرون الرشيد على العلويين ابناء عمه وسعيهم في قتل عظمائهم كالامام موسى بن جعفر ، وعبد الله بن الحسن الافطس المعروف بقتيل البرامكة وهو الذي اهدى جعفر البرمكي رأسه في طبق الى هرون الرشيد ، في يوم النيروز جاعلاً له من الهدايا التي تهدى في الاعياد .

السيدة زبيدة زوجة

هرون الرشيد وأم الامين

هي زبيدة بنت جعفر الاكبر بن المنصور العباسية ، زوجة هرون الرشيد وأم محمد الامين الخليفة العباسي ، وهذه السيدة العظيمة قد دخلت أخبارها في الخرافات ،واصبحت هي علماً لكل سيدة كبيرة عباسية من سيدات البلاط ، كما صار زوجها هرون الرشيد علماً لكل خليفة عباسي عظيم ، وعدّ وزيره جعفر بن يحيى البرمكي علماً لكل وزير خطير من وزراء الدولة العباسية ، فلا غرو أن تدور الاقاصيص حول هؤلاء الثلاثة ، ويكونوا أمثلة لغيرهم ، يغني ذكرهم عن ذكرهم ويعزى اليهم مع فضلهم فضل غيرهم ، ومن هذا ينشأ بعض الخلط في التاريخ والوهم في أحكامه.

إن جعفر الاكبر بن ابي جعفر المنصور تزوج سلسل أخت الخيزران زوجة أخيه المهدي العباسي ، فولدت له زبيدة واسمها « سكينة » وكنيتها أم جعفر ، وذكر الخطيب البغدادي في تاريخه والاصفهاني في الاغاني ان اسمها « أمة العزيز » ، وان جدها أبا جعفر المنصور كان يرقصها وهي صغيرة فيقول لها : « انت زبدة وانت زبيدة » فغلب هذا اللقب على اسمها الأصلي ، وانما لقبها ابو جعفر المنصور بذلك لبضاضتها ونضارتها وحسن بدنها ، والمعروف في التاريخ أن « أمة العزيز » هي جارية الخليفة موسى الهادي أخي

هارون الرشيد ، على انها اشتهرت بلقبها فلم تعرف إلا بزبيدة .
ووالد زبيدة هو جعفر الاكبر بن ابي جعفر المنصور - كما ذكرنا - وفي سنة ١٤٥ ولاّه أبوه مدينة الموصل وسيّر معه حرب ابن عبدالله أحد قواد بني العباس الكبار ، فبنى بأسفل الموصل قصراً وسكنه وفيه ولدت زبيدة ، قال ابن الأثير عز الدين :
« فهو اليوم ، [أي في أول القرن السابع للهجرة] يعرف بقصر حرب ، وعنده - يومنا هذا - قرية كانت ملكاً لنا ، فبنينا فيها رباطاً للصوفية وقفنا القرية عليه ، وقد جمعت كثيراً من هذا الكتاب في هذه القرية في دار لنا بها ، وهي من أنزه المواضع وأحسنها ، وأثر القصر باق بها الى الآن سبحان من لا يزول ولا تغيره الدهور » هذا كلام ابن الاثير .

أما أبو زبيدة جعفر الأكبر فقد مات في حياة أبيه المنصور ببغداد سنة « ١٥٠ » ودفن في مقابر قريش المعروفة اليوم بالكاظمية ، وهو اول من دفن فيها من القرشيين .

وعلى هذا تكون زبيدة قد ولدت بعد سنة ١٤٥ بقليل جداً ، ونشأت في دولة جدها المنصور ، ثم تزوجها ابن عمها هرون الرشيد وأعرس بها ببغداد سنة ١٦٥ هـ في خلافة ابيه المهدي ، وكان ذلك في دار محمد بن سليمان العباسي ، وأحبها الرشيد حباً جماً حتى إن أخاه الخليفة الهادي لما عزم على خلعه من ولاية العهد سنة ١٧٠ ، والمبايعة لابنه جعفر بن الهادي ، طاب الرشيد بذلك نفساً ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : لا تفعل . فقال الرشيد : أليس أخي يترك لي الهنيء والمريء فهما يسعاني وأعيش

مع ابنة عمي زبيدة . فهو قد فضل العيش معها على الخلافة ورأى فيه غنىً عن هذه المرتبة العظيمة والابهة الجسيمة .

ودار الزمان دورته ومات الخليفة الهادي فبويع بالخلافة هرون الرشيد سنة ١٧٠ ، وانقادت الدنيا له ولزبيدة ونقلت أموالها اليهما ، وفي سنة ١٧٦ أي بعد ست سنوات من استخلاف الرشيد ، حجت زبيدة الى بيت الله الحرام مع احد اخوتها ، واخوتها هم جعفر وعيسى وعبدالله وصالح ، وكان لها أخت واحدة اسمها لبابة . تزوجها موسى الهادي ، وانفقت في حجها في ستين يوماً اربعة وخمسين مليون درهم ، وقد أثرت زبيدة في مكة المكرمة آثاراً جميلة ، ومآثر خالدة فانها أجرت الماء الى مكة عشرة أميال ، بحفر الجبال ونحت الصخور حتى وصل الماء الى الحرم وأسقي اهل مكة بعد أن كانت الراوية وهي كالقربة تباع عندهم بدينار ، وعملت عقبة البستان ، وكانت لما أرادت عملها قال لها وكيلها : تلزمك لذلك نفقة كثيرة ، فقالت له : اعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار . وكان لها بجوار الكعبة دار تعرف بدار زبيدة ، ولها آثار جليلة ، عملتها في المدينة .

ولها ايضاً آثار جسيمة في طريق الحج من جهة العراق ، من مصانع وبرك وغيرها والمصانع جمع مصنع ومصنعة وهي سد يجمع الماء كمصنعة الهندية اي سدة الهندية ، وقد ذكر ابن جبير الرحالة بعض هذه الآثار ، قال « وهذه المصانع والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد الى مكة ، من آثار زبيدة ابنة جعفر بن ابي جعفر المنصور زوج هرون الرشيد وابنة عمه ، انتدبت لذلك مدة

حياتها فأبقت في هذه الطريق مرافق ومنافع ، تعمّ وفد الله تعالى ، كل سنة من لدن وفاتها الى الآن ، ولولا آثارها الكريمة في ذلك ما سلكت هذه الطريق والله كفيل بمجازاتها والرضى عنها » .

ولبثت زبيدة مدة مع الرشيد لا تعلق منه أي لا تحبل ، فشاور بعض مجالسيه من الحكماء واستشاره ، فنصحه بان يغيرها ، وضرب له مثلاً في الغيرة بسارة زوجة ابراهيم الخليل ، فان سارة لم تكن تحبل من ابراهيم فلما وهبت له هاجر وحبلت منه باسماعيل ، غارت سارة فحبلت منه باسحق ، فاشترى الرشيد جارية اسمها مراجل ، فولدت له عبد الله المأمون ، فغارت زبيدة منها فولدت له محمداً الأمين بعد ستة أشهر من ولادة المأمون ، وهي احدى الهاشميتين اللتين ولدتا خليفتين ، الاولى منهما هي فاطمة بنت أسد ام الامام علي بن ابي طالب - ع - والثانية زبيدة .

وذكر احد المؤرخين انها كان لها مائة جارية يحفظن القرآن الكريم ، ولكل واحدة منهن وِرْدُ عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها صوت كدوي النحل من قراءة القرآن ، وكانت معروفة بالخير والافضال على اهل العلم والبر للفقراء والمساكين وكان لها معروف كثير .

ومن العجيب ان التاريخ احتوى على اخبار جوار مغنيات كن لزبيدة ، ومنهن الجارية المسماة « قلم » ، ويحكى عن قلم هذه انها غنت بحضرة المأمون صوتا عجيباً اي مقاماً فسمعه علي بن هشام ، فاحتال لتعليم جواريه هذا الصوت بان بذل مائة الف دينار ،

ولم تعلم زبيدة بهذه السرقة الفنية ولو علمت لاغتاظت اشد الغيظ ، فانها كانت ضنينة بمثل هذه الاصوات الغنائية ، وسمعت مرة مع زوجها الرشيد غناء ابن جامع المغني ، فأمرت له بمائة الف درهم لكل بيت غناه ، واشترت غلاماً لعبدالله بن موسى الهادي ضراباً على العود مجيداً بثلاثمائة الف درهم ، ولهـا أخبار وردت في كتاب « الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني » تدل على لهوهـا ولهو زوجها هرون الرشيد ، بما كان له أثر قبيح في الدولة الاسلاميـة كشرب الخمر باسم النبيذ والاقبال على الملاهي الـتي حرّمتها الشريعة الاسلامية ، ولو بقي هرون الرشيد اكثر مما بقيه في الخلافـة لانحطت الدولة العباسية أقبح الانحطاط ، فانه كان ضعيف التدبير .

وفي سنة ١٩٣ هـ توفي زوج زبيدة أعني هرون الرشيد ، وبويع بالخلافة ابنه محمد الامين فافتتح خلافته بالغدر ، وخلع أخاه المأمون من ولاية العهد وكان لأمه زبيدة يد في هذه الحركة المشؤومة التي جعلت لاعداء الدولة العباسية طريقاً يسلكونه ، حتى لقد دفعت الى قائد جيش ابنها المبعوث لحرب المأمون وهو علي بن عيسى بن ماهان - قيداً من فضة وقالت له « قيـده بهذا القيد » بعد ان قالت له : « يا علي اعرف لعبدالله المأمون حق ولادته ولا تقتسره اقتسار العبيد اذا ظفرت به ، ولا تعنف عليه في السير ، وان شتمك فاحتمله » وكانت أجدر بان تمنعه من الغدر وتكفه عن احداث حدث عظيم في الدولة العباسية ، أخرب البلاد وأزهق نفوس العباد وأتى على نفس ابنها معهم ،

قيل انها دخلت يوماً على الرشيد فقالت له : ما انصفت ابنك محمداً حيث وليته العراق واعريته من العدد والقواد ، وصيرت ذلك الى عبدالله دونه ، فقال لها : وما انت وتمييز الاعمال واختيار الرجال ، اني وليت ابنك السلم وعبدالله الحرب ، وصاحب الحرب أحوج الى الرجال من المسالم ، ومع هذا انا أتخوف ابنك على عبدالله ولا أتخوف عبدالله على ابنك إن بويع .

ولما حلف الامين بالكعبة المعظمة لابيه الرشيد بالوفاء لاخيه المأمون ، واراد الخروج رده جعفر بن يحيى البرمكي وقال له ، « فان غدرت بأخيك خذلك الله » قالها ثلاث مرات ، فاضطغنت زبيدة ذلك على جعفر البرمكي وكانت احد من حرض الرشيد على اهلاكه ، وكأنها كانت تضمر الغدر للمأمون منذ ولي العهد .

وقتل الامين سنة ١٩٨ ﻫ وامة زبيدة في الحياة ، ولا شك في انها قاست بموته قتيلاً أروع المصائب ، وكابدت في حروبه اشد الاهوال والاحداث ، قيل لما احاطت جيوش المأمون ببغداد وحاصرت فيها الأمين ، دخلت عليه امه زبيدة باكية فقال لها ، « مه انه ليس بجزع النساء وهلعهن عقدت التيجان ، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع ، وراءك وراءك » .

وفي هذا ما يدل على قوة قلبه ونفسه وصلابة عزمه الا أن الشجاعة بغير العقل تكون وبالاً ونكالاً على صاحبها ، وكان لزبيدة شعر جيد منه قولها في فقدان ابنها الامين :

لما رأيت المنايا قد قصدن له
أصبن منه سواد القلب والراسا

فبت متكئاً أرعى النجوم له

اخال سنته في الليل قرطاسا

رزئته حين باهيت الرجال به

وقد بنيت به للدهر آساسا

فليس من مات مردوداً لنا ابداً

حتى يرد علينا قبله ناسا

وقالت تعزيه مرة :

نفسي فداؤك لا يذهب بك اللهف

ففي بقائك مما قد مضى خلف

عوضت موسى فهانت كل مرزئة

ما بعد موسى على مفقودة اسف

ولها أخبار مع المأمون لا تتعدى العتاب والترضي والتأسي ، وفي خلافته توفيت وذلك في جمادى الاولى من سنة ٢١٦ ﻫ ، ودفنت في مقابر قريش أي الكاظمية الحالية ، وكان قبرها قريباً من روضة الامام موسى بن جعفر ، ولما احرقت هذه المقبرة سنة ٤٤٣ ﻫ ، في خلافة القائم بأمر الله العباسي ، احترق فيها قبر زبيدة وقبر ابنها محمد الامين وقبر جعفر بن ابي جعفر المنصور وقبور بني بويه وغيرهم من الوزراء والرؤساء ، ذكر ذلك ابن الأثير عز الدين في تاريخه ، ولا ريب في أن القبور التي أحرقت جددت بعد ذلك ، ثم عفا قبر زبيدة مع القبور العافية الدارسة فلا اثر له اليوم .

واما القبة المعروفة اليوم بقبة الست زبيدة فهي في الحقيقة قبة زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله العباسي ، ولم نجد فيما وقع الينا من الأخبار ان زبيدة من الزبيدات دفنت قرب الشيخ معروف الكرخي ، فان يقع الينا يوماً من الايام فانها تعد مدفونة تحت قبة زمرد خاتون اعني القبة القائمة حتى اليوم كما دفنت تحتها من قبل السيدة بنفشة زوجة المستضيء بأمر الله ، والملك المعظم علي بن الناصر لدين الله ، وعائشة خانم زوجة والي بغداد حسن باشا سنة ١١٣١ اي قبل مائتين واربع وثلاثين سنة قمرية ، وفي هذا التاريخ حرفوا اسم «زمرد» الى زبيدة لان الجهل يبعث على التخليط والضلال .

السيدة بوران زوجة المأمون

السيدة بوران بنت الحسن بن سهل بن عبدالله السرخسي، زوجة أبي عبد الله المأمون الخليفة العباسي، وابنة اخي ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون، وقيل اسمها خديجة وبوران لقبها ولكنها اشتهرت ببوران، فانها سميت باسم ملكة الفرس «بوران دخت بنت أبرويز»، وفي عهد هذه الملكة دخل خالد بن الوليد العراق، وفتح حصن عين التمر المعروف اليوم بالأخيضر غربي كربلا.

ولدت بوران بنت الحسن بن سهل ليلة الاثنين لليلتين خلتا من صفر من سنة ١٩٢ في احدى مدن خراسان، وكان اهلها من المجوس، واسلم عمها الفضل بن سهل سنة «١٩٠» على يد المأمون، فهي قد رأت الدنيا بعد سنتين من إسلام أهلها، ونشأت تنشئة بنات العظماء، فان أمر المأمون ومملكته وسياستها كانت موكولة إلى عمها وأبيها، ولما قتل عمها سنة «٢٠٢» أسند المأمون وزارته إلى أبيها الحسن بن سهل، وفي تلكم السنة عقد المأمون زواجه بها وعمرها عشر سنوات، تألفاً لقلب والدها وتسكيناً لنفسه، لانه ـ أعني المأمون ـ أتهم بقتل وزيره الفضل بن سهل عم بوران، واتفقت كثرة الاحداث والحوادث والحروب وصغر سنها في تأخير دخول المأمون بها، وبعد أن عاد هذا

الخليفة إلى بغداد دار ملكه ومستقر خلافتـه ، وسبقه الحسن بن سهل إلى العراق لتوطيد ملكه له ، تهيأ له الدخول بها ، وإقامة عرس من أفخم الاعراس في تاريخ البشر .

وكان ذلك سنة « ٢١٠ » أيام كان أبوها الحسن بن سهل نازلاً ببلدة تسمى « فم الصلح » ، والصلح نهر كان فوق واسط وكانت هـذه البلدة على فوهته وفمه ، واحتفل أبوها بزواجهـا احتفالاً نادراً في التاريخ ، وعمل من الولائم والافراح ما قل عمل مثله في عصر من الاعصار ، وانحدر المأمون من بغداد إلى فم الصلح لثماني ليال خلون في شهر رمضان صائماً ، فوجد وزيره قد أعـــد له من الرياش والآلات والاثاث والزينة والهدايا ما يعد من قبيـــل الخرافات ، لعظمه وفخامته ونفاسته وطرافته وكثرته ، فقـــد فرش للمأمون حصيراً منسوجاً بالذهب ، ولما وقف عليه نثرت عليه لآلىء كثيرة ، فلما رأى تساقط اللالىء المختلفة على ذلك الحصير قال ، قاتل الله أبا نواس كأنه شاهد هذه الحالة حين قال ، في صفة الخمر والحباب :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

وكانت جدتها أم الفضل والحسن ابني سهل هي الـتي نثرت تلك اللالىء من صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع اللالىء المنثورة وسألها عن عددها ، فقالت : الف درة ، فأمر بعدّها ، فنقصت عشر حبات ، فقال : من أخذها منكم فليردها ، فقالوا : فلان ، فأمره بردها ، فقال اللاقط لها : إنما نثر اللؤلؤ لنأخـذه يا أمير المؤمنين ، فقال له المأمون : ردها فاني أخلفها عليك ،

فردها ، وجمع المأمون ذلك الدر في صينية الذهب كما كان ، وأمر بان يوضع في حجر بوران ، وقال لها : هذه نحلتك وسلي حوائجك أقضها ، فامسكت ثم سألته حوائجها ، وأوقدت ليلة عرسها شمعة عنبر وزنها أربعون مناً في اناء من ذهب ، ونثر أبوها على الهاشميين والقواد والكتاب والاعيان بنادق مسك ، في كل بندقة اسم ضيعة أي مقاطعة او اسم جارية او اسم دابة بصفاتها او غير ذلك ، فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل اللاقط لها ، فتحها فقرأ اسم ما في الرقعة التي في البندقة ، فاذا علم مضمونها ذهب الى وكيل مرصد لذلك ، فيدفعها اليه ويتسلم ما كتب اسمه فيها .

ثم نثر الحسن بن سهل بعد ذلك على سائر الناس دراهم ودنانير ، وبيض العنبر وأوعية المسك ، وانفق خمسين مليون درهم على المأمون وقواده وجميع اصحابه وسائر جنده واتباعه حتى الجمالين والمكارين والملاحين ، وكانوا خلقاً لا يحصون من الكثرة ، ولا عجب في ذلك فقد كانت عدة الملاحين حسب نيفاً وسبعين الف ملاح ، وأنشد الشعراء في ذلك وأطنب الخطباء ، وكان من الشعراء الذين حضروا هذا العرس العظيم محمد بن حازم الباهلي صاحب :

صن النفس واحملها على ما يزينها   تعش سالماً والقول فيك جميل

فقال :

بارك الله للحسن   ولبوران في الختن

يا بن هارون قد ظفرت   ولكن ببنت من ؟

فلما بلغ هذان البيتان المأمون قال : والله ما ندري اخيراً أراد أم شراً ؟

وكان منهم علي بن جبلة المعروف بالعكوك ، فاعطاه الحسن ابن سهل عشرة آلاف درهم قبل ان يستنشده وقال : الى أن نتفرغ ، فقال علي بن جبلة في قصيدة له :

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً عطية كافأت مدحي ولم تولني
ما شمت برقك حتى نلت ريّقه كأنما كنت بالجدوى تبادرني

ولما رجع المأمون الى بغداد بعد اربعين يوماً او اكثر وهب للحسن بن سهل عشرة ملايين درهم .

وكانت ام جعفر زبيدة زوجة هرون الرشيد حاضرة ذلك الزفاف بفم الصلح ، فألبست بوران من هداياها « البدنة الأموية » ، وهي من الثياب الغالية جداً ، استولى عليها بنو العباس من بني أمية ، وأعطتها نهر الصلح وكان ملكاً لزبيدة او اقطاعاً لها ، وعاشت السيدة بوران ببغداد وخارجها مع المأمون ثماني سنوات ، ثم توفي زوجها في سنة ٢١٨ قرب طرسوس من بلاد الروم ، وكانت هي معه وفي صحبته ، فعادت الى بغـــداد مع الجيش العباسي الغازي ، وكان أبوها قـد بنى على شاطىء دجلة الشرقي ببغداد بنايات فخمة ، وكانت هذه البنايات قرب القصر الجعفري الذي كان في اراضي المحكمة الشرعية وما حولها ، وسمي « القصر الحسني » نسبة الى الحسن بن سهل ، ثم توفي الحسن سنة ٢٣٥ او بعد سنة فورثت ابنته بوران ذلكم القصر . وفي عهـــد الخليفة المعتمد على الله العباسي كانت سامرا عاصمة للخلافة العباسية ، الا

ان هذا الخليفة كان يتردد الى بغـداد ليلهو ويشرب ، واخوه طلحة ولي عهده مشتغل باصلاح الدولة وجمع الجيوش ، لحرب علي ابن محمد صاحب الزنج الثائر - كان - على بني العباس المدعي انه صاحب الزمـان ، واستحسن المعتمد على الله قصر الحسن بن سهل اي القصر الحسني ، فطلب الى السيدة بوران ان تنزل له عنـه ، فاستنظرته اياماً لتفريغه وتسليمه ثم رممته وجصصته وبيضتـه ، وفرشته باحسن الفرش واجلّتها وعلقت اصناف الستور على ابوابه ، وملأت خزائنه بكل ما يصلح لخلفاء ذلكم الزمان من الآلات ، ورتبت فيه خدماً وجواري تدعو الحاجة الى استخدامهم والانتفاع بهم فلما فرغت من ذلـكم انتقلت من القصر الحسني ، وراسلت الخليفة المعتمد على الله في ان ينتقل اليه ، فانتقل اليه ووجد فيـه من الاشياء ما استحسنه واستكثره ، وصار القصر المذكور اصلاً لدار الخلافة العباسية بعد نقلها من سامرا نقلاً كاملاً ، في زمان المعتضد بالله العباسي ابن اخي المعتمد الذي أسلفنا ذكره .

وبقيت السيدة بوران ببغداد الى ان توفيت فيها ، يوم الثلاثاء لثلاث ليال بقين من شهر ربيع الاول سنة ٢٧١ هـ ، في خلافـة المعتمد على الله ، ودفنت في محـلة المخرم المعروفـة اوضها اليوم بالعيواضية وما حولها ، وجعل لقبرها قبة ، ثم عرفت تلك المقبرة باسم « المقبرة السهلية » ولعلها نسبت الى جدها سهل والد الحسن ابن سهل - على الطريقة العربية - في النسبة ، اعـني ان العرب تنسب أمثال هذه المحدثات الى والد المؤسس وجده لا الى المؤسس نفسه ، كما قالوا « الدولة العباسية » و « الدولة الاموية » ، مع ان

العباس وامية لم يؤسس احد منهما دولة . وفي محرم سنة ٤٨٥ ه أمر السلطان ملكشاه السلجوقي بعمارة جامع عنـــد قبر بوران ، وهو الجامع المعروف بجامع السلطانة فأصبحت قبة قبرها مقابـلة لمقصورة الجامع ، وكلاهما كان قريباً من دار المملكة السلجوقية ، فعلى هذا تكون مقبرة الشهداء الحالية التي ببـــاب المعظم من المقـــبرة السهلية حيث دُفنت السيدة بوران او من مكان كان قريباً منها ، وقبتها بقيت قائمة الى ما شاء الله ، حتى ليجد النـاظر صورتها في رسم بغداد الذي رسمه الاستاذ المطراقي ، اعتماداً عـــلى رؤيته لهذه المدينة أيام احتلال السلطان سليمان القـانوني لها سنة ٩٤١ ، ولم اجد لتربتها ذكراً ولا صورة بعد ذلـكم التاريخ ، فقد عفا قبرها مع القبور الدارسة ودرس جامع السلطان ملكشاه مع كونه بيتاً من بيوت الله ، ولا يسلم من الزوال والعفاء والفنـاء الا الله تعالى .

السيدة شجاع ام المتوكل على الله

ومخارق ام المستعين بالله

اسم هذه السيدة شجاع ، وهو غريب عن الاسماع في أول وهلة ، وإذا علمنا أن من معاني الشجاع في العربية « الحية الشديدة الجريئة » أيقنا ان هذه السيدة قد سميت باسم هذا الضرب من الحيات ، وكانت شجاع في الاصل جارية مملوكة مثل اكثر امهات الخلفاء العباسيين ، وقد ثبت بالعلم أن اختلاط دماء الاجيال والاقوام يطور الأولاد ، ويورث الصفات ، فنسل بني العباس الخلفاء تعاوره الصلاح والفساد بحسب الامم التي تزوجوا منها .

كانت شجاع تركية الاصل خوارزمية طخارية البلاد من إقليم طخارستان فيما وراء النهر ، وجلبها الجلابون في الرقيق وباعها النخاسون في العراق ، فصارت إلى المعتصم بالله بن هارون الرشيد ، فأولدها أبا الفضل جعفر المتوكل على الله ، سنة ٢٠٥ في خلافة أخيه عبد الله المأمون ، وكان للمعتصم جارية قبل شجاع من الجواري الروميات ، اسمها قراطيس ، وولدت له أبا جعفر هارون الملقب بالواثق بالله سنة ١٩٥ ، في أيام النزاع بين الأمين والمأمون ، وقد جرت العادة ان ابناء العلات اي ابناء الرجل من نسوة شتى ، يختلفون ويتضاغنون لاختلاف امهاتهم ، وتضاغنهن ، دون بني الاعيان وهم الاخوة من الأبوين ، ودون الاخوة الاخياف وهم

الذين امهم واحدة وآباؤهم شتى ، وسبب ذلك ان تصافي النساء يؤدي في الغالب الى تصافي الرجال ، وتشاحنهن يؤدي الى تشاحنهم ، فلا جرم ان العداوة نشأت بين الواثق بالله واخيه المتوكل على الله ، بسبب التعادي بين امهاتهما وثبتت العداوة بينهما وان كان ابوهما المعتصم قد مات ولتلكم العداوة كانت حال المتوكل في خلافة اخيه الواثق اتعس حال ، يجبه ويساء لقاؤه ، وتعطل ارزاقه اي معاشاته ، ويستهزأ به ويجز شعره ، ويغضب عليه الواثق لأضعف الأسباب ، ومن اخبار الاستهزاء به والمعابثة له ، ان حمدون بن اسماعيل النديم ، وكان ينادم المعتصم بالله ، اتصل بالواثق بالله ونادمه بعد ابيه ، وكان يعلم اعراضه عن اخيه المتوكل ، فكان يعبث به ، ولقد جاء مرة بحية في كمه واخرج رأسها للمتوكل تعريضاً بأمه شجاع ، لأن الشجاع كما ذكرنا نوع من الحيات ، وكان هذا المجون البارد يعجب الخليفة الواثق ، وما أدري اي غضاضة على المتوكل في تسمية امه بالحية ؟

واذ كانت حالة المتوكل تعسة في خلافة اخيه الواثق استدل بذلك على رداءة حال امه شجاع ، ولذلك لم يكن لها شأن في عهده ، فلما توفي الواثق وذلك سنة ٢٣٢ كما هو معروف ولي المتوكل الخلافة غاضباً منتقماً ، عاقداً للنية على مخالفة اعمال اخيه كلها ، والحقد والغضب اقبح العيوب في سياسة الممالك ، فلذلكم لم ينجح المتوكل في سياسته الانتقامية .

وفي سنة ٢٣٧ في خلافة المتوكل حجت امه السيدة شجاع الى بيت الله الحرام فخرج المتوكل معها من سامرا فشيعها الى النجف وعاد ،

وكانت في صحبة حفيدها محمد بن المتوكل وهو الذي لقب في استخلافه بالمنتصر ، وفي سنة ٢٤٥ غارت مشاش وهي عين يجري ماؤها في جبال الطائف حتى تصل عرفات وتفضي الى مكة ، فأصاب اهل مكة العطش وبلغ ثمن القربة الواحدة ثمانين درهما ، فبعثت السيدة شجاع من اصلحها واصلح قناتها وانفقت على ذلك من مالها ، وكانت مقبلة على مثل هذا من الاعمال الخيرية والآثار الحسنة .

وكان لها كثير من الاملاك والقرى فمن ذلك قريـة بناحية واسط ، ذكرت في حوادث التاريخ استطراداً ، فان اخبار هذه السيدة قليلة ، فالتواريخ لم تفصل سيرتها ، كما فصلت سير كثير من امهات الخلفاء وسيدات البلاط العباسي في سامرا وبغداد .

ولست ليال خلون من شهر ربيع الآخر توفيت بسامرا السيدة شجاع ، وكانت وفاتها قبل قتل ابنها المتوكل على الله بستة أشهر ، وصلى عليها حفيدها المنتصر بالله ، ودفنت هناك عند المسجد الجامع في المتوكلية ، وهي المدينة المعروفة بالجعفرية قديماً واليوم بأبي دلف .

وكانت تركتها من الدنانير خمسة ملايين وخمسين الف دينار ، ومن الجوهر ما قيمته مليون دينـــار ، قال أحد المؤرخين في وفيات سنة ٢٤٧ « وتوفيت شجاع أم المتوكل وكانت خـــيرة كثيرة الرغبة في الخير ، وخلفت من العين خمسة آلاف دينـار وخمسين الف دينار ، ومن الجوهر ما قيمته الف الف دينار ، ولا تعرف امرأة رأت ابنها وله ثلاثة اولاد ولاة عهود إلا هي » أراد بقوله الاخير أبنـاء المتوكل محمداً المنتصر بالله وزبيراً المعتز بالله وابراهيم المؤيد بالله هذا ما وصل اليّ من اخبار السيدة شجاع .

السيدة مخارق

اما السيدة مخارق والدة الخليفة المستعين بالله فكانت جارية روسية الاصل ، وامتلكها الامير محمد بن المعتصم بالله ، فولدت له فيمن ولدت ، أحمد وهو الذي لقب بالمستعين بالله لما ولي الخلافة ، وكانت ولايته لها سنة ٢٤٨ ، وكان من ضعفة الخلفاء ، فقد أطلق في عهده يد أتامش الامير التركي وشاهك الخادم ويد أمه مخارق ، وأباحهم ان يفعلوا ما يريدون ببيوت الأموال ، ولم يمنع امه من شيء تريده ، وكان لها كاتب اسمه سلمة بن سعيد وكان نصرانياً بارعاً في الكتاب والحساب ، فكانت الاموال التي تحمل من جميع الممالك العباسية الى سامرا حضرة الخلافة ، يصير كثير منها الى السيدة مخارق ، وكانت تنفق انفاق من لا تخاف الفقر ، ولا تعلم ان صلاح الممالك وسداد أمور الخلافة باقيان ما بقيت الاموال في بيوتها ، وصرفت الى وجوهها ومن أخبار تخرقها في الانفاق قصة بساط التماثيل ، قال احمد بن حمدون النديم : عملت ام المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الاجناس ، وصورة كل طائر ، من ذهب وعيونها من يواقيت وجواهر ، أنفقت عليه الف الف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألت المستعين ان يقف عليه وينظر اليه ، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته ، فقال لي المستعين ولأترجة الهاشمي : اذهبا فانظرا اليه ، فذهبنا ومعنا الحاجب ، فرأيناه ،

فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً احسن من ذلك البساط ، ولا رأينا شيئاً حسناً في الدنيا إلا وقد عمل فيه ، فمددت انا يدي الى غزال من ذهب عيناه ياقوتتان فوضعته في كمي ، ثم عدنا الى المستعين فوصفنا له البساط وحسن ما رأينا فيه ، وقال أترجة الهاشمي للمستعين : يا امير المؤمنين ان ابن حمدون قد سرق منه شيئاً ، وغمزه على كمي ، فأخرجت الغزال وأريته المستعين ، فقال لنا : بحياتي عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما ، فمضينا فملأنا اكمامنا وأقبيتنا واقبلنا نمشي كالحبالى ، فلما رآنا المستعين ضحك ، فقال لبقية الجلساء وفيهم يزيد المهلبي : ونحن فما ذنبنا يا امير المؤمنين ؟ فقال لهم : قوموا فخذوا ما شئتم ، ثم قام من مجلسه فوقف على الطريق الذي يمر فيه الجلساء ، ينظر كيف يحملون اشياء البساط ، وهو يضحك ، ورأى يزيد المهلبي سطلا من ذهب مملوءاً مسكاً ، فأخذه بيده وخرج ، فقال له المستعين : الى أين ؟ فقال : الى الحمام يا امير المؤمنين ، فضحك المستعين من قوله ، ثم أمر الفراشين والخدم ان ينهبوا الباقي فانتهبوه ولما علمت امه مخارق بذلك ارسلت اليه خادماً برسالة تقول له فيها ، لقد كنت احب ان تراه قبل ان تفرقه ، فاني أنفقت عليه مائة الف الف وثلاثين الف دينار ، فأمر بان يحمل لها من بيت المال مقدار الذي انفقت حتى تعمل بساطاً مثله فعملته ، ومضى فرآه ولكنه فعل به كفعله بالاول ، وفرقه على الندماء .

وفي سنة ٢٥١ خلع الجند بسامرا المستعين بالله ، فهرب الى بغداد مع جماعة من الأمراء ، وبويع المعتز بالله بن المتوكل ،

وترك المستعين الاموال بسامرا ، وكان في بيت المال نحو من خمسمائة الف دينار ، وفي خزانة السيدة مخارق نحو مليون دينار ، وفي خزانة العباس بن المستعين نحو ستمائة الف دينار ، وبقيت هذه السيدة بسامرا كالمعتقلة إلى ان خلع المستعين نفسه ببغـــداد فبعث المعتز بها وبابنته وعياله اليه ، ثم قتل المستعين سنة ٢٥٢ ، وبقيت السيدة مخارق بعد قتل ابنها ولم يصل إليّ تاريخ وفاتها لندور أخبارها .

السيدة فريدة صاحبة الواثق بالله

وزوجة المتوكل على الله

اول ما يسمع العالم بتاريخ العرب باسم « فريدة » ، يدرك انها جارية من الجواري لا حرة من الحرائر ، لأن هذا الاسم من اسماء الجواري المملوكات عند العرب ، حتى ان البيوتات العربية لا تزال تسمي الجواري الحبشيات بفريدة ، والفريدة هي الدرة الكبيرة ، فاذا سميت بها السوداء فذلك من تسمية الشيء بضده .

كانت فريدة جارية بيضاء ، حسنة الوجه حادة الفطنة والفهم ، وكانت في ملك عمرو بن بانة المغني ، فاهداها الى الخليفة الواثق بالله هرون بن المعتصم ، وهي في كمالها من حيث التربية والأدب والغناء ، فصارت أثيرة عنده ، حظية كل الحظوة لديه ، وطلب الواثق الى السيدة شارية صاحبة ابيه المعتصم ، أن تتم تعليمها الغناء ، فعلمتها ولم تبق في تعليمها غاية ، الى أن حدث بينهما شيء من الخلاف بحضرة الواثق ، فأخذت شارية تقصر في تعليمها .

وأغرم بها الواثق غراماً شديداً ، وتعلقت هي به تعلقاً عجيباً ، وكان الواثق مولعاً بسماع الغناء ، وكان يغني اذا انبسطت نفسه وانشرح صدره ، وقد صنع في الغناء مائة لحن ما فيها لحن ساقط ، ولم يكن يحضر مجلسه أعلم منه بالغناء ، ولا كان

في الخلفاء أعرف منه بهذا الفن ، وكان اذا أخذ العود وغنى أتى بالعجب العجاب ، وأعرب عن هوى في فن الغناء ، وبراعة في الضرب ، وكشف عن نفس عريقة في نسب الطرب ، واذ كان الواثق خليفة مفنّنا أي ذا فنون ، كان يجد في حبيبته فريدة عوناً على ترجمة فنه في الغناء والموسيقى ، فكم من لحن من الحانه المائة ، أراد عرضه على اساتذة الغناء كاسحاق بن ابراهيم الموصّلي ، فلم يستطع ذلك إلا بان يعلمه فريدة ، وفريدة تلقيه على الاساتذة من وراء الستارة ، وبدعي أنه لحن قديم وقع اليه حتى يسمع تقريظه أو استقباحه ، ويصلح ما يستلزم الاصلاح منه .
وله في ذلك حكاية طريفة غضب فيها على اسحاق الموصلي ، لأنه وشي اليه به بأنه يستقبح الحانه على علم منه بانها له ، وأمر به فسحب حتى أخرج من مجلسه في دار الخلافة بسامرا ، ولكن فريدة اقنعته بأن اسحق الموصّلي مغن صاحب فن وصناعة وأن المؤمن بجمال الفن المتقن له ، العالم بمقاييسه ، لا يحيد عن الحق في النقد قيد شعرة ، وأعلمته ان المعيد للحنه الجديد ، وهو مخارق المغني ، أساء تأديته فاستبشعه اسحاق ، وما زالت به حتى رضي عن اسحاق وأحضره مجلسه ، ثم غنت فريدة لحن الواثق فلما سمعه اسحاق قال : هذا صوت صحيح الصنعة والقسمة والتجزئة ، وما هكذا سمعته في المرة الاولى ، وقد وفت لاسحاق في هذه الشفاعة بحق التلمذة لانه كان قد صنع لها لحناً من الالحان المختارة التي كانت اغلى منى الموسيقيين .

وهذه السيدة الحان كان يغنيها اكبر المغنين كابراهيم بن المهدي

العباسي ، ولا سيما لحنها في أبيات ابي العتاهية التي يقول فيها :

قال لي احمد ولم يدر ما بي   اتحب الغداة عتبة حقا
فتنفست ثم قلت نعم حباً   جرى في العروق عرقاً فعرقا
لو تجسين يا عتيبة قلبي   لوجدت الفؤاد قرحاً تفقّا
قد لعمري مل الطبيب ومل   الاهل مني بما اقاسي والقى
ليتني مت فاسترحت فاني   أبداً ما حييت منها ملقّى

وكان بين الواثق بالله وأخيه جعفر الذي لقب في خلافته بالمتوكل بغضاء وشحناء ، كما كان بين موسى الهادي واخيه هارون الرشيد ، فكان جعفر يتربص موت الواثق كما كان هارون يتربص موت موسى الهادي . وتوفي الواثق بسامرا سنة «٢٣٢» ه وكانت خلافته خمس سنوات وتسعة اشهر واياماً ، ولم يتجاوز عمره الخامسة والثلاثين . وكان قبل موته يتخيل صيرورة الخلافة الى اخيه المتوكل ، واستيلاءه على الدولة ، حتى لقد كان يتصور ان فريدة ستصير إلى المتوكل وتغنيه . ولقد ذكر محمد بن الحارث بن بسخنر احد الذين كانت لهم نوبة في خدمة الواثق ، ان الواثق ارسل ذات يوم يطلبه في غير يوم النوبة فخاف وارتاع وداخله فزع شديد ، فركب دابته حتى وافى دار الخلافة ، فأخذ الخدم بيده فأدخلوه في ممرات لا يعرفها ولا عهد له بها ، حتى أفضى الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة حيطانها بالوشي المنسوج بالذهب ، ثم بلغ رواقاً أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك الوشي ، فاذا هو بالواثق بالله جالساً في صدر الرواق على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه السيدة فريدة

وعليها مثل ثيابه وفي حجرها عود ، فأمره بالجلوس وامر له برطل من الشراب ، واندفعت فريدة تغني :

أهابك اجلالاً وما بك قدرة
علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس يا ليل انها
قلتك ولكن قل منك نصيبها

فجاءت بغناء سحري وجعل الواثق يجاريها ، وهي في خلال ذلك تغني الصوت بعد الصوت وغنى محمد بن الحارث المذكور في خلال غنائها ، وانهم لكذلك في مسرة وغناء وحبور ، اذ رفع الواثق رجله فضرب بها صدر فريدة ضربة تدحرجت بها منها من أعلى السرير وتكسر عودها ، فهربت وهي تصيح ، وبقي محمد بن الحارث كالمنزوع الروح وخاف أن تكون عينه التي جنت عليه ، واطرق الواثق ساعة الى الارض ، قال محمد بن الحارث: فاني لكذلك إذ قال لي الواثق : يا محمد . فوثبت ، فقال : ويحك أرأيت اغرب بما تهيأ علينا ؟ فقلت : يا سيدي الساعة والله تخرج روحي ، فعلى من اصابنا بالعين لعنة الله ، فما كان السبب؟ ألذنب من الذنوب ؟ فقال الواثق : لا والله ولكن فكرت ان جعفراً – يعني اخاه المتوكل – يقعد هذا المقعد ، ويقعد مع فريدة كما هي قاعدة معي ، فلم اطق الصبر وخامرني ما اخرجني الى ما رأيت ، قال محمد بن الحارث : فلما علمت السبب سري عني وقلت : بل يقتل الله جعفراً يا امير المؤمنين وتحيا ابداً ، وقبلت الأرض ، وقلت : يا سيدي ، الله الله ، ارحم فريدة

وأمر بردها . فقال لبعض الخدم الواقفين : من يجيء بها ؟ فلم يكن بأسرع من ان خرجت ، وفي يدها عود وعليها غير الثياب التي كانت عليها ، فلما رآها جذبها وعانقها ، فبكت وجعل هو يبكي ، قال محمد بن الحارث : واندفعت انا في البكاء معهما ، ثم قالت فريدة للواثق : ما ذنبي يا مولاي ويا سيدي ، وبأي شيء استوجبت هذا ؟ فأعاد عليها ما فكر فيه ، وهو يبكي وهي تبكي ، فقالت له : سألتك بالله يا أمير المؤمنين الا ضربت عنقي هذه الساعة ، وأرحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من الاهتمام بي ، وجعلت تبكي ويبكي ، ثم مسحا اعينهما ورجعت هي الى مكانها ، قال محمد بن الحارث : واومأ الواثق الى خدم وقوف بشيء لا اعرفه ، فمضوا واحضروا اكياساً فيها دنانير ودراهم ، واحضروا رزماً فيها ثياب ، وجاء خادم بدرج ففتحه واخرج منه عقداً ما رأيت قط مثل جوهر فيه ، فألبسه فريدة وأحضرت بدرة فيها عشرة آلاف درهم ، وخمسة تخوت فيها ثياب ، فوضعت بين يدي ، وعدنا الى احسن مما كنا فلم نزل كذلك الى الليل ثم انصرفنا وحملت معي الدراهم والثياب .

وتوفي الواثق بالله فلم يكن هم المتوكل اخيه إلا ان يتزوج السيدة فريدة ، فتزوجها وامرها ذات يوم ان تغني فأبت وامتنعت وفاءاً للواثق فأقام المتوكل على رأسها خادماً وامره ان يضرب راسها ابداً او تغني ، فلما ايقنت بقسوة المتوكل وصغر نفسه ولآمة طبعه اخذت تغني :

مقيم بالمجازة من قنونا ... واهلك بالأجيفر فالثماد

فلا تبعد فكل فتى سيأتي   عليه الموت يطرق او يغادي

ثم ضربت بالعود الارض ، ورمت بنفسها عن السرير الذي كانت عليه ، ومرت تركض وهي تصيح : واسيداه، تندب سيدها الواثق ، ولم يظهر لها ذكر بعد هذه الحادثة الغريبة . اما الحانها وصناعتها الفنية فمذكورة ابد الدهر ، واما وفاؤها لصاحبها الخليفة الواثق فمن نوادر اخلاق النساء ولا سيما ذوات الفن .

السيدة قبيحة

صاحبة المتوكل على الله وأم المعتز بالله

السيدة قبيحة ، صاحبة الخليفة المتوكل على الله وأم الخليفة المعتز بالله واخيه الامير اسماعيل ، وانما سميت قبيحة كما سمي العبد الاسود بكافور على تسمية الشيء بضده ، فقد كانت جارية رومية الاصل رائعة الجمال فائقة الملاحة ، فسماها المتوكل « قبيحة » لحسن صورتها ، وكان المتوكل شديد الميل والاقبال عليها . وغرابة اسمها سببت تصحيفه في كتب التاريخ فجاء على صورة « صبيحة » و « فتيحة » و « قنيحة » . ولها في تاريخ الأدب العربي أخبار جميلة ، وفي تاريخ العراق السياسي أنباء خطيرة ، وفي تاريخ سامرا خاصة ذكر مستفيض ، لأنها كانت سيدة من سيدات البلاط العباسي ، أيام كان البلاط في سامرّا ، فهي في تلك الايام عاصمة الدولة العباسية ، وحضرة العالم الاسلامي ، وملتقى عظماء الدنيا ومباءة الخلفاء والوزراء والكبراء ، وغاية التجار والسياح والعلماء والادباء ، ومقر الأحزاب السياسية والقواد والجيوش ، ومجمع أصناف الناس ، وسيدة المدن الحديثة .

ولي صاحبها وسيدها المتوكل بن المعتصم الخلافة ، بعد وفاة أخيه الواثق بسامرا سنة ٢٣٢ ، واختلت أمور الدولة العباسية في

زمانه ، لامور كثيرة ليس هـــذا موضع شرحها ، وكان من أشدها اخلالاً بالامور ، كثرة نفقات المتوكل على القصور التي بناها بسامرا ، ولم يكن بيت المال يتحمل ذلك فأفلست الدولة ، ومن المعلوم في سياسة الدول أن قلة المال سبب في الاختلال ، وأن الدولة التي لا مال لها زائلة لا محالة .

على ان الادب العربي في ذلكم العصر ، كان على الضد من الحالة السياسية والحالة المالية – في تقدم واتساع ، فقد نشأ فيه جوار شاعرات وجوار أديبات ، منهن فضل ومحبوبة الشاعرتان اللتان طار صيتهما واشتهر شعرهما ، قال علي بن الجهم الشاعر : دخلت على المتوكل ، وقد بلغني أنه كلم قبيحة جاريته فأجابته بشيء أغضبه ، فرماها بمخدة فأصابت عينها فأثرت فيها فتأوهت وبكت ، وبكى لبكائها ابنها المعتز بالله ، فخرج المتوكل من عندها وقد أصابته الحمى من الغم والهم والغضب ، قال علي بن الجهم ، فلما بصر بي المتوكل دعاني ، وإذا الفتح بن خاقان وزيره ، وهو يُري بختيشوع الطبيب قارورة المتوكل ويشاوره في مرضه ، فقال لي المتوكل : يا علي : قل شعراً في علتي هـــذه وصف ان الطبيب ليس يدري ما بي ، فقلت :

تنكَّر حال علـــتي الطبيب وقال أرى بجسمك ما يريبُ
جسست العرق منك فدل جسي عـــلى ألم له خـــبر عجيب
فما هذا الذي بك هات قل لي فكان جوابه مـــني النحيب !
وقلت أيا طبيب الهجر دائي وقلبي يا طبيب هو الكئيب
فحرّك رأسه عجبـــاً لقولي وقال : الحب ليس له طبيب

فأعجبني الذي قد قال جـدا وقلت : بلى إذا رضي الحبيب
فقال هو الشفـاء فلا تقصر فقلت : اجل ولكن لا يجيب
ألا هل مسعد يبكي لشجوي فـاني هائم فرد غريب ...

قال علي بن الجهم : فقـال لي المتوكل : احسنت وحياتي ، يا غلام اسقني قدحاً ، فجاءه الغلام بقدح فشرب وسُقيت الجماعـة مثله ، وخرجت اليه فضل الشاعرة بأبيات امرتها قبيحة ان تقولها عنها ، فقرأها فاذا هي :

لأكتمن الذي في القلب من حرق حتى اموت ولم يعلم به النـاس
ولا يقال : شكا من كان يعشقه إن الشكاة لمن تهوى هي اليأس
ولا ابوح بشيء كنت اكتمـه عند الجلوس اذا ما دارت الكاس

فقال المتوكل : احسنت يا فضل . قال علـي بن الجهم : وأمر لها ولي بعشرين الف درهم ، ودخل الى قبيحة جاريته فاسترضاها .

وقال يزيد بن المهلبي الشـاعر : كنا عند المتوكل يوماً وقـد غاضبته قبيحة ، فخرج الينا فقال : من ينشدني منكم شعراً في معنى غضب قبيحة عليّ ، واحتياجي ان اخضع لها حتى ترضى ؟ فقلت : لقد احسن محمد بن حازم الباهلي - يا أمير المؤمنين - حيث يقول :

صفحت برغمي عنك صفح ضرورة اليك وفي قلبي ندوب من العتب
خضعت وما ذنبي إن الحبّ عزني فأغضيت صفحاً عن معالجة الحب
وما زال بي فقر اليك منـازع يذلل مـني كل ممتنع صعب
الى الله اشكو ان ودي محصل وقلبي جميعـاً عند مقتسم الحب

فقال المتوكل : احسنت وحياتي يا يزيد ، وامر ان يغنى في هذا الشعر ، وأمر لي بألف دينار . وهذه الحكاية شبيهة بحكاية علـي بن

الجهم، تدل على ان قبيحة كانت كثيرة التجني علـــى المتوكل .
وحكى احد الرواة قال : غضبت قبيحة مرة على المتوكل وهاجرته، فجلس ودخل الجلساء والمغنون وكان فيهم عبد الله بن العباس الربيعي المغني، وكان عرف الخبر فقال هذا الشعر وغنى فيه :

« لستَ مني ولستُ منك فدعني وامض عني مصاحباً بسلام »
لم تجد عـــلة تجني بها الذنـ ـب فصارت تعتل بالاحلام
فاذا ما شكوت ما بي قالت : قد رأينا خلاف ذا في المنام

قال : فطرب المتوكل وأمر له بعشرين الف درهم، وقال له : ان في حياتك يا عبد الله لأنساً وجمالاً، وبقاء للمروءة والظرف .
وذكر احمد بن ابي فنن قال : خرجت قبيحة مرة الى مجلس المتوكل في يوم نيروز، وبيدها كأس بلور بشراب صاف، فقال لها : ما هذا – فديتك – قالت : هديتي لك في هذا اليوم، عرفك الله بركته ؛ فأخذ الكأس من يدها، فرأى على خدها مكتوباً بالمسك « جعفر » وهو اسمه، فشرب الكأس وقبل خدها، وكانت فضل الشاعرة واقفة على رأسه فقالت :

وكاتبة بالمسك في الخد « جعفرا » بنفسي سواد المسك من حيث أثرا
لئن أثرت بالمسك سطراً بخدها لقد اودعت قلبي من الحزن اسطرا
فيـــا من لمملوك لملك يمينه مطيع له فـــيما اسرّ واظهرا
ويا من مناها في السريرة جعفر سقى الله من سقيا ثناياكِ جعفرا

فأمر المتوكل عريب المغنية فغنت في هذه الابيات، وقيل ان هذه الابيات لمحبوبة الشاعرة، وإن فضل الشاعرة قالت :

سلافـــة كالقمر البـــاهر في قدح كالكوكب الزاهر

يديرها خشف كبدر الدجى فوق قضيب اهيف ناضر
على فتىً اروع من هاشم مثل الحسام المرهف الباتر

ولما سجن المتوكل علي بن الجهم الشاعر الذي أسلفنا ذكره نظم أبياتاً يستعطفه بها ووجه بها الى السيدة قبيحة مستجيراً بها، مستغيثاً لها، مستعيناً اياها على عدة ندماء للمتوكل كانوا يحرضونه عليه، ويغرونه بقتله، فبعثت قبيحة بالابيات ابنها المعتز الى ابيه المتوكل، فعطف على ابن الجهم بعض العطف وآمنه من الهلاك، في تلكم الايام التي كان الهلاك فيها ينصب على الانسان من حيث لا يعلم.

ولثلاث ليال من شوال سنة ٢٤٧، قتل المتوكل سيد قبيحة بسامرا. قال شمس الدين بن خلكان في ترجمة المتوكل من كتابه «وفيات الاعيان»: وكان السبب في قتل المتوكل — على ما حكي — انه قدّم ابنه المعتز على ابنه المنتصر، والمنتصر اكبر منه سناً، وكان يتوعد المنتصر ويسبه ويسب أمه حبشية، ويأمر الذين يحضرون مجلسه من اهل السخف بسبه، فسعى المنتصر في قتله ووجد الفرصة فقتله، قلت وارتكب المنتصر مع الامراء الاتراك امراً فظيعاً شنيعاً من حيث الاخلاق، لان من التردي في حمأة النذالة والسفالة، أن يقتل الانسان أباه كائناً من كان.

ولقد اهتمت قبيحة بتربية ابنها المعتز وتهذيبه وتأديبه وتعليمه، من ايام خلافة ابيه. قال ابو جعفر احمد بن عبيد بن ناصح الكوفي النحوي، مؤدب المعتز ومعلمه: لما اراد المتوكل أن يعقد للمعتز ولاية العهد حططته عن مرتبته قليلاً، واخرت غداءه عن وقته، فلما

كان وقت الانصراف قلت للخادم: احمله، فحمله، فضربته من غير ذنب، فكتب بذلك الى المتوكل، واذ كنت في الطريق منصرفاً لحقني صاحب رسالة، فقال: امير المؤمنين يدعوك، فدخلت على المتوكل وهو جالس على كرسي والغضب يبين في وجهه، والفتح بن خاقان وزيره قائم بين يديه متكئاً على السيف، فقال لي: ما هذا الذي فعلته بأبي عبد الله - يعني ابنه المعتز - ؟ قلت: أأقول يا امير المؤمنين ؟ فقال: قـــل انما سألتك لتقول، قلت: بلغني ما عزم عليه أمير المؤمنين - اطال الله بقاءه، فدعوت أبا عبد الله وحططت منزلته، ليعرف هذا المقدار من الحط فلا يعجل بزوال نعمة احد، واخرت غداءه ليعرف هذا المقدار من الجوع، فاذا شكي اليه الجوع عرف ذلك، وضربته من غير ذنب ليعرف مقدار الظلم فلا يعجل على احد، فقـال لي المتوكل: احسنت، وامر لي بعشرة آلاف درهم، ثم لحقني رسول من السيدة قبيحة بعشرة آلاف اخرى، فانصرفت بعشرين الفاً. وهذه الحكاية على ان السيدة قبيحة وصاحبها المتوكل كانا يودان حسن التربية.

وبويع بالخلافة بعد المتوكل ابنه المنتصر بالله، فلم تكن خلافته إلا ستة اشهر، فبويع بالخلافـــة بعده احمد بن محمد بن المعتصم ولقب «المستعين بالله»، ولم يبايع احد من ابناء المتوكل لان المعتز وامه قبيحة والمؤيد، كانا خلعا انفسهما من ولاية العهد، في خلافة أخيهما المنتصر، أجبرا على ذلك، ولان غـيرهما من ابناء المتوكل لم يكن مرغوباً فيـــه، وفي خلافة المستعين بالله العباسي، تدخلت السيدة قبيحة في سياسة الدولة، لتحوز الخلافة

لابنها ابي عبد الله المعتز الذي دفع عنها بعد موت ابيه ، وخلع من ولاية العهد في خلافة اخيه ، وبعد حروب وكروب اصابت سامرا عاصمة الدولة العباسية وبغداد حاضرة المجد الاسلامي ، خلع الخليفة المستعين من الخلافة ، وكان ذلك سنة «٢٥٢» ، اي بعد سنتين وتسعة اشهر من استخلافه ، وبويع بالخلافة المعتز بالله ، فحرضته امه قبيحة على القواد الاتراك ، وكانت اليهم امور الدولة العباسية ، وقالت له : يا بني اقتلهم في كل مكان ، واخرجت اليه قميص ابيه المتوكل مخضباً بدمائه ، فقال لها : يا اماه ارفعيه وإلا صار القميص قميصين ، وخشي ان يقتلوه كأبيه .

ثم أخذ المعتز بن قبيحة يتتبع ما عند المستعين من المال والجوهر فأخذه ، حتى لقد أرسل اليه الجارية قرب وهي جارية امه قبيحة ، يسأله ان ينزل له عن ثلاث جوار من جواري المتوكل على الله ، كان المستعين نفسه تزوجهن ، فنزل له عنهن وجعل أمرهن الى أنفسهن ، فلم يكن لهن خلاص من الدخول في عبودية المعتز بالله ، بعد ان كن زوجات حرات ، ثم دبر المعتز بالله في قتل المستعين بالله بعد ان اعطاه العهود المبينة والمواثيق الغليظة ، فذبح كما يذبح الخروف وحمل رأسه الى المعتز بالله بسامرا ، وكان في مجلس لهو وغناء ، وكانت جارية من جواري المستعين المغصوبات ، تغنيه وندماءه في ذلكم المجلس من وراء الستارة لأن امه قبيحة كانت جالسة مع الجواري ، ولما رأى المعتز الرأس امر لغلظة في قلبه وفظاظة في نفسه ، ان يدخل به على الجواري ، ويوضع بين يدي جارية المستعين المغنية ، وكانت معروفة بحبه

والتعلق به ، قال احد ندماء المعتز بالله : فنحن كذلك إذ سمعنا من وراء الستارة ضجة أفزعتنا ، فاذا جارية المستعين تصيح والسيدة قبيحة تشتمها ، والجارية الصائحة تقول :

« يا قوم اخذتموني غصبا ، ثم تجيئوني برأس مولاي المستعين فتضعونه بين يدي » فسمعنا صوت العود قد ضرب به رأسها ، وكانت التي ضربتها به السيدة قبيحة ، قال : فانصرفنا عن المجلس اقبح انصراف .

ومن هذا الخبر نعلم ان السيدة قبيحة وان كانت جميلة الصورة ، كانت قبيحة النفس والاخلاق ، وانها لم تسلم من قباحة اسمها قط ، والا فما هذه الوحشية المنكرة ؟ وكانت بخيلة تحتجن الاموال ، وتخفيها في المواضع المستورة مع احتياج دولة ابنها اليها ، ففي سنة « ٢٥٥ » هـ اعتقل مقدم القواد الاتراك صالح بن وصيف ، كاتبها الحسن بن مخلد واحمد بن اسرائيل ، وغيرهما من كتاب الدولة ، بحجة ان اموال الدولة في ايديهم وان الجند محتاجون الى الارزاق اي المعاشات ، وقيدهم واثقلهم بالحديد على رغم انف الخليفة وضرب احمد بن اسرائيل حتى كسرت اسنانه ، وبطح الحسن بن مخلد فضرب مائة سوط ، ولم يستطع صالح بن وصيف استخراج شيء من الاموال منهم ، فصار الجنود الاتراك الى الخليفة المعتز وقالوا له « اعطنا ارزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف » ، فأرسل المعتز الى امه قبيحة يسألها ان تعطيه مالاً ليعطيهم ارزاقهم ، فأرسلت اليه تقول « ما عندي شيء ، وقد وردت لنا سفاتج فلينتظروا حتى نقبض ونعطيهم » فعلت ذلك لبخلها وشحها ،

وابت اعطاء شيء مع علمها بأن حيـاة ابنها متوقفة على المال .
فلما رأى الاتراك ومن كان بسامرا من الجند المغاربـة أن بيت المال خال ، وان الخليفة المعتز وامـه قد امتنعا من أن يسمحا لهم بشيء من المال ، اجتمعوا على خلع المعتز من الخلافـة ، ولثلاث ليال بقين من رجب سنة ٢٥٥ حضروا دار المعتز بهوشة وصياح ، وجلس رؤساؤهم على باب داره ، وبعثوا اليـه ان أخرج الينا فبعث اليهم بجواب يقول فيه : « إني اخذت الدواء امس وقد اجفلني اثنتي عشرة مرة ، ولا اقدر على الكلام من الضعف ، فان كان امرآ لا بد منه فليدخل اليّ بعضكم فليعلمني ، فدخل اليه جماعة من صغار القواد فجروا برجله ، بعد ما تناولوه بالضرب بالدبابيس ، فخرج الخليفة وقميصه ممزق محرق وآثار الدم على منكبيه ، فأوقفوه في الشمس وسط الدار في وقت شديد الحر ، قال احد اسباب الخليفة اي محسوبيه : فجعلت انظر الى الخليفة المعتز يرفع قدمه ساعة بعد ساعة ، من حرارة الموضع الذي أقيم فيه ، ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، وجعلوا يقولون له : اخلـع الخلافة ، حتى اجبروه على خلع نفسه ، واعطوه الأمان لامه قبيحة ولاخته ولابنه ، ولكنهم وكلوا بامه نساءآ يحفظنها على نية ان يستخرجوا منها الاموال ، وبايع الاتراك بالخلافة محمد بن الواثق وتلقب بالمهتدي بالله وهو زاهد بني العباس ، ودفع الخليفة المعتز إلى عدة رجال يعذبونه ويمنعونه الطعام والشراب ثلاثـة ايام ، فطلب حسوة من ماء البـئر فمنعوه ، ثم جصصوا سرداباً بالجص الثخين ، وادخلوه فيه واطبقوا عليه بابه فأصبح ميتـاً ، وكانت

وفاته لليلتين خلتا من شعبان من هذه السنة اي سنة ٢٥٥ .

اما امه قبيحة فقد كانت اتخذت في الدار التي تسكن فيها سرباً اي طريقاً تحت الارض ، واحتالت هي والجارية قرب واخت المعتز فهربن من السرب ، واختفين في سامراء ايضاً ، وبث صالح بن وصيف على قبيحة العيون اي الجواسيس والارصاد ، فلم يظفر بها ثم ظهرت من قبل نفسها في شهر رمضان من السنة المذكورة ، وسلمت نفسها الى الاتراك ، ودلتهم على الاموال التي عندها والذخائر والجواهر التي ادخرتها ، وكانت في الحقيقة قد عزمت على الفتك بصالح بن وصيف ، وآمرت الكتاب على ذلك وكتبت إلى موسى بن بغا الكبير تسأله القدوم الى سامرا وترك ما قبله من البلاد ، فلما اوقع صالح بالكتاب - كما ذكرنا في اول الاخبار - وعلمت انهم اقروا له بالمؤامرة ، بسبب ما نالهم به من العذاب أيقنت بالهلاك ، فعملت في التخلص فاخرجت ما في الخزائن داخل قصر الجوسق بسامرا من الاموال والجواهر وفاخر المتاع فاودعته ودائع ، وضمتها الى ودائع قديمة ، ثم اظهرته للاتراك ، ودلهم احد الجواسيس على كنز لها كان في دار صغيرة قريبة من المسجد الجامع بسامرا . قال احد اصحاب صالح بن وصيف : جاء بنا ذلك الرجل الجاسوس إلى دار صغيرة نظيفة بحضرة المسجد الجامع ، فدخلناها ففتشناها فلم نجد شيئاً ، فأخذ الرجل فأساً فجعل ينقر بها الحيطان ، حتى وقعت الفأس على موضع استدل بصوته على ان فيه شيئاً ، فهدمه وإذا من ورائه باب ففتحناه ودخلنا اليه ، فأفضى بنا إلى سرب وصرنا

الى دار تحت الدار التي دخلناها ، بشكلها وبنائها ، فوجدنا من الدنانير في اسفاط موضوعة على رفوف زهاء الف الف دينـار اي مليون دينار ، ووجدنا ثلاثة اسفاط : سفطاً فيـه زمرد من النوع العالي ، وسفطاً دونه فيه حب لؤلؤ كبار ، وسفطاً دونه فيه ياقوت احمر لم ارَ مثله في الدنيا ، فقوّم الجميـع اي قدرت قيمته فبلغت الفي الف دينار اي مليوني دينار ، فحملناه كله الى صالح بن وصيف ، فلما رآه جعل لا يصدق ولا يوقن ، حتى تأمله ودقق النظر فيه ، فقال عند ذلك : « قبح الله قبيحة وفعل بها وفعل ، عرّضت ابنها للقتل في مقدار خمسين الف دينار ، وعندها مثل هذا في خزانة واحدة من خزائنها ! »

وكان لقبيحة اموال ببغداد فكتبت تأمر بحملهـا الى سامرا لتعطيها صالح بن وصيف ، فوصل منها في شهر رمضان قـدر خمسمائة الف دينار ، ووقعوا لها على خزائن ببغـداد فحملت مقادير منها الى سامرا ، ولم تزل تباع تلك الخزائن بيعاً متصلاً ببغداد وسامرا عدة شهور حتى نفـدت ، ولم تزل قبيحة مقيمة بسامرا الى ان شخص الناس الى مكة حاجين في هذه السنة ، فأشخصت هي وابنها الثاني اسماعيل وحفيدها عبد الله بن المعتز وجماعة غيرهم الى مكة منفيين ، والظاهر ان صالح بن وصيف لم يكتف بكنوزها بل تجاوزها الى الاعتداء على عفافها قاتله الله ـ فقـد سُمعت في طريقهـا الى بيت الله الحرام تدعو الله على صالح بن وصيف بصوت عـال تقول : « اللهم أخز صالح بن وصيف كما هتك ستري وقتل ولدي ، وبدّد شملي واخذ مالي وغرّبني عن

بلدي وركب الفاحشة مني » ، وبقيت قبيحة بمكة ، مع جماعتها منفية حتى اعادها الى سامرا الخليفة المعتمد على الله احمد بن جعفر المتوكل وكان ذلك في اول خلافته ، واكرمها فهي صاحبة ابيه ، ثم قتل صالح بن وصيف سنة ٢٥٦ .

وقضت السيدة قبيحة بقية عمرها في سامرا حتى توفيت بها ، في شهر ربيع الاول سنة ٢٦٤ هـ في خلافة المعتمد على الله المذكور آنفاً ، ودفنت هناك ، تاركة للتاريخ سيرة من اعجب السير ، سيرة سيدة جميلة صبيحة قاسية القلب مترفـــة سياسية ، امتحن الدهر بها وامتحنها ، ورزأها القدر صاحبها المتوكل وابنهـــا المعتز وعرضها واموالها وكنوزها ، وقد ذكر لها المؤرخون ذوقـــاً في البناء ، قال احمد بن حمدون : بنى المعتز في قصر الجوسق في الصحن الكامل بسامرا بيتاً قدرته له امه قبيحة ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان احسن بيت رُئي ، فدعانا المعتز اليه ، الى آخر الخبر مما لا يخرج عن السكر والغناء ، ويعنينا منه انها هي التي نظمت خارطته وصورته ، فبرهنت على حسن ذوقها في العمارة .

فضل صاحبة المتوكل

كانت فضل من النسوة الخوالد ، ذوات الآثار الكريمة واولات الاخبار الطريفة والآداب البارعة . ولئن جاز للتاريخ أن يتغاضى عنها من حيث هي سيدة من سيدات البلاط العباسي ، لأن تاريخنا تاريخ الرجال ، لم يجز له ان يتغاضى عنها من حيث أدبها الرفيع وشعرها الشاعر وروحها الخفيفة ، وفصاحتها المحكمة وبديهتها الحاضرة في النظم والنثر .

كانت فضل من الجواري المولدات في اليمامة في القسم الشرقي الجنوبي من جزيرة العرب ، ونشأت هناك في رجل من قبيلة عبد القيس ثم نقلت الى العراق مثل كثير من الجواري المولدات اللواتي ثقفن بالثقافة العربية ، وادبن بالآداب الاسلامية وربين على الفصاحة والبلاغة ودربن على الانشاء والايقاع والعزف والغناء ، كل على حسب قابليتها الطبيعية وملكتها المكتسبة وهواها وولعها .

اشتراها بالعراق محمد بن الفرج الرُّخَّجي ، من اعيان الدولة العباسية ، اشتراها على انها اديبة أريبة ، شاعرة مجيدة ، كاتبة بارعة ، وهذه الصفات بل الخصائص كانت مما يغلي ثمن الجارية ويعليه ، ويجعلها مطلوبة مرغوبة محبوبة ، ثم اهداها الرخجي الى الخليفة المتوكل على الله ، وكانت دار خلافته - كما هو معروف - سامرا ،

وكانت الدار عظيمة فخمة فيها قور القصور ولا سيما القصر الجعفري المنسوب الى اسمه «جعفر». وكذلك المدينة التي بناها عند القصر فانها صارت اكبر من سامرا وهي المدينة المتوكلية، وإذ كان المتوكل نهى الرعايا عن الخوض في الجدال والمماراة في المذاهب الدينية والمناظرات في القرآن الكريم المخلوق هو ام قديم؛ كثر الانصراف الى اللهو والأدب والشعر والغناء واتخاذ الجواري الاديبات والشاعرات، والمغنيات في البلاط العباسي نفسه خاصة، لان محل الخليفة يجب ان يكون فيه من شواغل الاجسام والارواح وملاهي النفوس ومزجيات الاوقات. فلم يكن غريباً ان يكون في البلاط المتوكلي مثل فضل الشاعرة الكاتبة الظريفة ومحبوبة الشاعرة المطبوعة الجميلة المغنية وان لم يكن غناؤها من الطبقة الاولى. وهاتان الشاعرتان تذكران معاً دائماً، قال عبد الله بن المعتز – وهو من اعلام الشعر والادب – قال لي ابراهيم بن المهدي: كانت فضل الشاعرة من احسن خلق الله حظاً وافصحهم كلاماً وابلغهم في مخاطبة واثبتهم في محاورة، وقال ابن المعتز ايضاً: كانت تهاجي الشعراء ويجتمع عندها الادباء ولها في الخلفاء والملوك مدائح كثيرة.

قال بعض المؤرخين: لما دخلت على المتوكل يوم اهدائها اليه قال لها: اشاعرة انت يا فضل؟ قالت: كذا يزعم من باعني ومن اشتراني يا امير المؤمنين. فضحك المتوكل وادرك رقة طبعها ثم قال لها: انشديني من شعرك يا فضل، فقالت:

استقبل الملك امام الهدى عام ثلاث وثلاثينا

خلافة افضت الى جعفر   وهو ابن سبع بعد عشرينا
انا لنرجو يا امام الهدى   ان تملك الأمر ثمانينا
لاقدس الله امرءاً لم يقل   عند دعائي لـك آمينا

فقال المتوكل لعلي بن الجهم السامي الشاعر :– وكان حاضراً مجلسه – قل بيتاً . وطلب من فضل الشاعرة ان تجيزه فقال علي : اجيزي يا فضل :

لاذ بها يشتكي اليها   فلم يجد عندها ملاذا

فأطرقت هنيئة ثم قالت :

ولم يزل ضارعاً اليها   تهطل اجفانه رذاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً   فمات وجداً فكان ماذا؟

فطرب المتوكل – وحق له ان يطرب – وقال احسنت وحياتي يا فضل . وامر لها بالفي دينار جائزة لها .

وكان ذلك امتحاناً لها لان النظم في الحال والاجازة على حسب الطلب – اعني اتمام الشعر الناقص المعنى – يدلان على الملكة الشعرية وقوة البديهة والقدرة على النظم ، فمن لم تكن له ملكة ادبية قصر وبان عجزه .

دخلت فضل بذلك الامتحان العسير بلاط المتوكل وصارت من سيداته إلا انها لم تكن من الجمال على نصيب يجعلها سيدة السيدات ، وكانت السيدة قبيحة الرائعة الجمال اولى سيدات البلاط ، وكان شعر فضل بضاعة ادبية تعرض عند الطلب وتصان وتحفظ عند كساد السوق .

كنا ذكرنا في ترجمة السيدة قبيحة انها امرت فضل الشاعرة

ان تنظم ابياتاً على حسب هواها ، لتكون وسيلة لها الى ترضي المتوكل بعد اعراضه عنها في حادثة جرت بينهما ، فنظمت قولها :

لا كتمن الذي في القلب من حرق حتى اموت ولم يعلم بـه الناس
ولا يقال شكا من كان يعشقه ان الشكاة لمن تهوى هي الباس
ولا ابوح بشيء كنت احكتمه عند الجلوس اذا ما دارت الكاس

وبعد قتل المتوكل سنة « ٢٤٧ » هـ تفرقت جواريه فمنهن من وجدت في هلاكه بؤساً وحرجاً كمحبوبة ومنهن من وجدت فيه خلاصاً وفرجاً مثل فضل فانها اطلقت حبها المزموم وباحت بغرامها المكتوم ، لعاشقها سعيد بن حميد الكاتب المشهور وكان هـذا الرجل من أشد الناس بغضاً للعلويين واعراضاً عن أهل البيت وكانت فضل على العكس متشيعة متعصبة لأهل مذهبهـا تقضي حوائجهم بجاهها ، فتركت من اجل حبه مذهبها وصدفت عن قديم طريقتها وهكذا كان النصر والفوز للحب والغلبة للقلب على اللب والظفر للمشرب على المذهب .

وبعد هذا العشق التهبت عاطفـة فضل الشعرية واسترسلت ملكتها الادبيـة فما في حوافز الادب حافز اقوى من الحب ، وأتت بالبارع من النظم والنثر اللذين جعلا قلبها معروضاً على راحتها فلا كتمان ولا إخفاء ولا مداهنة ولا استحياء ، ولقد ظن معاصروها ان صاحبها سعيد بن حميد كان يكتب لها رقاعها ببلاغته المعروفة ، مع انهـا كانت أكتب منه وأبلغ وأشعر وآدب ، كيف لا وقد قيل ان سعيد بن حميد كان يغير على نفيس كلام الناس فيجعله في رسائله ولو قيل لكل جملة من رسائله : ارجعي

الى صاحبك لم يبق له منها شيء . قال ابراهيم بن المهدي : قلت لسعيد بن حميد ذات يوم : اظنك يا أبا عثمان تكتب لفضل رقاعها وتقيدها وتخرّجها فقد اخذت طريقتك في الكلام وسلكت سبيلك . فقال لي وهو يضحك : ما أخيب ظنك ! ليتها تسلم مني : انني لآخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخي لو اخذ افاضل الكتاب وأماثلهم عنها ما استغنوا عن ذلك .

وكان يحدث بينهما ما يكون بين المتعاشقين من الدلال خوف الملال وتجني الذنوب لاغراء المحبوب ، او لامتحان القلوب ومن تكلف الهجر لاختبار الصبر ، فقد ذكروا ان سعيد بن حميد كان ذات يوم في مجلس الحسن بن مخلد الكاتب بسامرا فجاءه الغلام برقعة فضل الشاعرة تذكر فيها شدة شوقها . فقرأها وضحك . فقال الحسن بن مخلد : بحياتي عليك ، أقرئنيها . فدفعها اليه فقرأها وضحك وقال : قد وحياتي ملُحت فضل ، فأجب وحقي انت بكلام مليح . فكتب اليها سعيد :

يا واصف الشوق عندي من شواهده ... قلب يهيم وعين دمعها يكف
والنفس شاهدة بالود عارفة ... وأنفس الناس بالاهواء تأتلف
فكن على ثقة مني وبينة ... اني على ثقة من كل ما تصف

وذكر محمد بن السري احد اصحاب سعيد بن حميد قال : ذهبت الى سعيد وهو في دار الحسن بن مخلد في حاجة لي وبينما كنت هناك جاءته رقعة فضل الشاعرة وفيها هذان البيتان :

الصبر ينقص والغرام يزيد ... والدار دانية وانت بعيد

اشكوك ام اشكو اليك فانه   لا يستطيع سواهما المجهود

وتحت البيتين تقول « يا أبا عثمان انا في حال التلف ولم تعدني ولا سألت عن خبري » . قال محمد بن السري : فاخذ سعيد بيدي ومضينا اليها فسأل عن خبرها فقالت : هوذا أموت وتستريح مني . فانشأ يقول :

لا متِّ قبلي بل احيا وانتِ معاً   ولا اعيش الى يوم تموتينا
لكي نعيش بما نهوى ونأمله   ويرغم الله فينا انف واشينا
حتى اذا قدر الرحمن ميتتنا   وحان من امرنا ما ليس يعدونا
متنا جميعاً كغصني بانة ذبلا   من بعد ما نضرا واستوسقا حينا
ثم السلام علينا في مضاجعنا   حتى نعود الى ميزان منشينا

السيدة شغب ام المقتدر بالله

ان هذه السيدة من ذوات السير الحافلة بالحوادث والاعمال ، ولم تكن سيرتها بأقل شأناً من سير كبريات النساء في العالم ، من ملكات ومتحكمات ، ومشاركات في السلطان .

كانت السيدة شغب في اول أمرها جارية لاحدى النساء الكبيرات ببغداد ، ثم تملكها الخليفة ابو العباس احمد المعتضد بالله ابن ولي العهد الموفق طلحة ، وكان يقال لها « ناعم » ، لثماني ليال بقين من شهر رمضان سنة ٢٨٣ ، وولدت للمعتضد ابناً سماه « جعفرا » ، وهو الذي لقب بالمقتدر بالله حين ولي الخلافة ، ولما ولدته غير المعتضد اسمها وسماها « شغب » ، وكانت ولادتها ولداً ذكراً شغباً وتحريشاً ، بالاضافة الى نساء الخليفة المعتضد ، وتوفي المعتضد عنها في سنة ٢٨٩ ، وولي الخلافة بعده ابنه المكتفي بالله ولبث في الخلافة حتى سنة ٢٩٥ ، فتوفي فيها وهو آخر الخلفاء الحازمين في عصر نهضة الدولة العباسية بعد كبوتها الاولى ، وولي الخلافة بعيده اخوه ابو الفضل جعفر بن السيدة شغب ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وايام ، وكان اصغر من تولى الخلافة من بني العباس ، ولذلك اراد المتلعبون بالخلافة خلعه مرتين فلم يفلحوا ، وفي خلافته ظهر شأن والدته شغب ، وعلا امرها

وتحكمت في الدولة ، ودارت امور الدولة على تدبيرها وتدبير القهرمانات وغيرهن من النساء ، فأصابها تخليط كثير وجرها سوء التدبير الى سوء العاقبة ، كما هو مفصل في كتب التاريخ .

وصارت السيدة شغب في عهد ابنها المقتدر لا تعرف الا بالسيدة ، فكان القائل اذا قال « امرت السيدة » علم انها شغب ام المقتدر ، وكذلك ورد اسمها في التواريخ ، واتخذت لنفسها ديواناً يقوم بأموره كاتب يجري مجرى الوزير ، وأول كاتب ولته ديوانها احمد ابن العباس بن الحسن ، وكان ابوه العباس بن الحسن وزير المقتدر وجعلت لنفسها قهرمانة أي حاكمة ، وبعد اشهر خلع ابنها المقتدر ، وبويع بالخلافة عبد الله بن المعتز الاديب الشاعر المشهور ، إلا أن حزب المقتدر لم يذعنوا لهذا الخلع ، وقاتلوا حزب عبد الله بن المعتز فشتتوهم ، لأنهم لم يكن لهم اموال يجذبون بها القلوب ، ويصلحون بها الامور على الضد من حزب المقتدر فان معهم يوسف بن انبخاس وهارون بن عمران اليهوديين الصيرفيين وحزب المال هم الغالبون ، وبقي المقتدر في الخلافة وقتل عبد الله بن المعتز ، وتعاظم حكم السيدة شغب في الدولة ، وكان لها اخ اسمه « غريب » ويعرف بغريب الخال اي خال المقتدر ، فتمكن في الدولة ايضاً ، وصار ابنه هارون من أعاظم قادة الجيوش فيها .

وفي سنة ٣٠٦ أمرت السيدة شغب قهرمانتها واسمها ثمل أن تجلس بالرصافة قرب مدفن الامام أبي حنيفة ، وتنظر في مظالم الناس وشكاياتهم من الحكام والمتولين ، وجعلت ذلك في كل جمعة ، فأنكر الناس ان تحكم بينهم امرأة ، واستبشعوا فعل

السيدة شغب وعابوه عليها ، ولكن ثمل القهرمانة احضرت معها القاضي ، فكانت تستشيره في الاحكام ، فسار امرها على سداد واستقامة ، وانتفع بذلك المظلومون ، وترك الناس استنكارهم وطعنهم ، وأيقنوا ان العـدل هو المنشود لا الذي يقيمه من ذكر وانثى وابيض واسود .

وفي هذه السنة نفسها – اعني سنة ٣٠٦ في المحرم منها أنشأت السيدة شغب مارستاناً أي مستشفى بسوق يحيى بالرصافة ، وكان سوق يحيى على شط دجلة على مقربة من المحلة المعروفة اليوم بمحلة السفينة في الاعظمية ، وجعلت امره الى الحكيم سنان بن ثابت الصابي أي الصبي ، فجلس فيه ورتب الاطباء الذين يعالجون فيه مرضى الناس ، وكانت النفقة عليه كل شهر ستمائة دينار ، واشار سنان الصابي على المقتدر ان يتخذ مارستاناً يوسم باسمه ، فأنشأ مارستاناً بباب الشام فعرف بالمارستان المقتدري ، وكانت محلة باب الشام غربي الشالجية ، وكانت نفقته الشهرية مائتي دينار ، ولم يكن احسان السيدة شغب محدوداً بمثل هذه الامور النافعة ، بل كانت تتصدق كثيراً وتحبس الاوقاف على المصالح الخيرية ، وتواظب على مصالح الحجاج وتبعث مع قافلتهم بخزانة شراب للمرضى ، وترسل الاطباء لمعالجتهم ، وتأمر باصلاح الاحواض في الطريق ، وكان يرد خزانتها من املاكها مليون دينار في كل سنة ، والاحسان وان كان من السياسة فانه جزء ضئيل منها .

وقد حاولت هذه السيدة في سنة ٣١٦ ان تقتل مؤنساً المظفر مقدم الجيوش العباسية ، فاتصل به انها قد وضعت له جماعة ،

ليفتكوا به اذا دخل دار الخلافة ، وهي التي قلنا ان ارضها هي ارض سوق المستنصر الحالي ، فاستوحش مؤنس المظفر واحترس ، وطلب من الخليفة الخروج الى الثغور وترك الاقامة ببغداد ، فأذن له الخليفة ولكن حالت بينه وبين ذلك الحوادث ، وتغير قلبه بعد ذلك ، حتى بلغ به التغير ان حارب الخليفة وقتله – كما هو معروف في التاريخ – ولما اراد المقتدر ان يخرج في سنة ٣٢٠ الى حرب مؤنس المظفر بالشماسية وهي محلة الصليخ الحالية ، جزعت أمه وجهدت به ألا يخرج وكشفت عن ثدييها - على عادة النساء في المصائب – وبكت ، فغلب القضاء ونزل البلاء ، وخرج المقتدر فقتل هناك وولي الخلافة بعده اخوه ابو منصور محمد بن احمد المعتضد ولقب بالقاهر بالله .

قيل : لما اراد المقتدر الخروج الى حرب مؤنس المظفر قال لأمه شغب : « قد ترين ما وقعت فيه وليس معي دينار ولا درهم ، ولا بد من مال يكون معي ، فأعينيني بما معك من المال ، فقالت له : « قد اخذت مني يوم سار القرمطي الى بغداد ثلاثة آلاف الف دينار – اي ثلاثة ملايين – وما بقيت لي بعدها ذخيرة الا ما ترى » واحضرت له خمسين الف دينار ، فقال المقتدر : « واي شيء تغني عني هذه الدنانير ، واي مقام تقوم لي هذه الخمسون الفاً في عظيم ما استقبله ؟ » ثم قال لها « اما انا فخارج كيف كنت وعلى ما استطعت ، ولعلي اقتل فاستريح ، ولكن الشأن فيمن تبقى بعدي ، ويقبض عليها وتعذب ، وتعلق في هذه الشجرة تعليقة دراجية » واشار الى شجرة كانت في بعض دور

الخلافة . قالت ذلفاء المنجمة وكانت متصلة بالمقتدر ونسائه : « فوالله لقد قبض على شغب وعلقت في تلك الشجرة بعينها » ، على ان السيدة شغب لم تكن كاذبة فيما قالت لابنها ، ولم تكن كالسيدة قبيحة ، اعانت ببخلها على قتل ابنها المعتز وكان الخليفة القاهر بالله العباسي هو الذي سامها سوء العذاب وطالبها بالاموال ، وكان قد قررها بالرفق والتهديد ، فحلفت له انها لا مال عندها ولا جوهر ، الا صناديق فيها ثياب ومصاغ وطيب ، وذكرت انها لو كان عندها مال ما اسلمت ابنها للقتل ، فضربها بيده وعلقها منكسة برجل واحدة على شجرة ، وكان بولها يجري على وجهها ؛ - ولا حياء في التاريخ - ولم يجد عندها غير ما اقرت به وقيمته « ١٣٠ » الف دينار . وذلك التعذيب يدل على وحشية في القاهر بالله وفظاظة نفس وغلظة قلب ، فقالت له « لو كان معي مال ما جرى في امرنا من الخلل ما آل الى جلوسك حتى تعاقبني هذه العقوبة ، وانا امك في كتاب الله وقد خلصتك من ابني في الدفعة الاولى » ، تشير الى محاولة حاولها قواد الجيش سنة ٣١٦ لخلع المقتدر وتولية القاهر ولكن اعمالهم حبطت .

ثم احضر القاهر اليها الشهود ، ليشهدوا عليها بانها وكلته في بيع املاكها ، ووقفت هي وراء الباب ، فلم يقنع الشهود بذلك بل ارادوا رؤيتها بأعينهم ، على وفق ما اوجبته الشريعة ، فرأوها وكلموها قال احدهم : رأينا عجوزاً دقيقة الجسم سمراء اللون الى البياض والصفرة ، عليها اثر ضُر شديد ، وكانت قبل ذلك قد مرضت وفسد مزاجها ، ثم اصابتها مصيبة قتل ابنها وبقائه بالعراء

غير مدفون ، وامتنعت من الاكل والشرب حتى كادت تموت ، فما زالوا يرفقون بها حتى اكلت كسرة خبز بملح ، وكان الامير علي بن يلبق قد التزم جانبها ، فطالب القاهر بالله بان يسلم ما بقي في يده من متاع السيدة شغب فسلمه اليه وباعه ، ونقل السيدة شغب الى بيت والدته ، فبقيت مكرمة المثوى مكرّمة عشرة ايام ثم توفيت ، وكانت وفاتها بعد قتل ابنها بسبعة اشهر وثمانية ايام ، ودفنت بالرصافة بالجانب الشرقي من بغداد .

ولهذه السيدة اخبار كثيرة جمعت بين الغرابة والطرافة ، وكانت في قضية الحسين بن منصور الحلاج الشهيرة ، منعت ابنها المقتدر من الاذن بقتله ، واخرته اياماً خوفاً على ابنها ، ولكنها لم تستطع تخليص الحلاج من القتل ، لانه ظهر في ايام القرامطة الزنادقة ومن وضع نفسه في موضع الريبة والتهمة فلا يلومنّ الا نفسه .

السيدة قطر الندى

زوجة الخليفة المعتضد بالله العباسي

لقد اشتهرت من سيدات البلاط العباسي ، باسم قطر الندى سيدتان ، احداهما قطر الندى بنت خمارويه امير مصر ، وقيل اسمها « أسماء » ولقبها قطر الندى ، والأخرى قطر الندى أم الخليفة القائم بامر الله واسمها « عَلم » وموضوعنا هذا مقصور على قطر الندى بنت خمارويه ، كما ذكرنا في عنوان الحديث .

إن هذه السيدة هي حفيدة احمد بن طولون القائد التركي ، الذي أسس الدولة الطولونية بمصر ، وقطعها من مملكة بني العباس واستقل فيها ، وابوها خمارويه بن احمد بن طولون المذكور ولد بالعراق سنة « ٢٥٠ » هـ ، وأخذه أبوه معه الى مصر ونشأ هناك وتزوج فولدت له قطر الندى ، وكانت موصوفة بفرط الجمال ووفرة العقل وحسن الادب وكمال الخلق ، وكان جدها احمد بن طولون يعد خارجياً خارجاً على الدولة العباسية ، القائمة باسم الموفق طلحة بن المتوكل على الله وهو وليّ عهد اخيه المعتمد على الله الخليفة العباسي ، ولم يكن للخليفة إلا الاسم والوسم ، ولما فرغ بنو العباس من أمر علي بن محمد صاحب الزنج الثائر — كان — في البصرة ونواحيها المدعي انه الامام القائم بالحق الموعود به ، وجهوا جيوشهم نحو الأطراف العاصية كمصر وغيرها ، فخشي خمارويه أن تطول الحروب والكروب بينه وبين بني العباس ،

فبادر الى المعتضد بالله أبي العباس احمد الخليفة الجديـــد ، بالهدايا والتحف العظيمة ، وأرسل بها مع تاجر من تجار بغداد الكبار إذ ذاك ، وهو الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص ، ووصل هذا الى بغداد سنة ٢٧٩ وكان معه من الهدايا ، عشرون حملاً من الدنانير على بغال ، وعشرة غلمان من الخدم أي المماليك وصندوقان فيهما قماش فاخر ، وعشرون رجلاً على عشرين فرساً نجيباً ، بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة ، ومعهم حراب فضة ، وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة ، وسبع عشرة دابة بسروج ولجم ، منها خمسة بذهب والباقي بفضية ، وسبع وثلاثون دابـة بجلال مبرقشة ، وخمسة أبغل فارهة بسروج ولجم ، وزرافـة ، وارسل اليه برسالة يطلب فيها الى المعتضد ، ان يزوج ابنتـــه قطر الندى من ابن الخليفـة علي بن المعتضد ، وهو الذي ولي الخلافة بعدئذ ولقب بالمكتفي بالله ، وكان جميل الصورة ايضاً ، وفي ذلك قال الشاعر :

قايست بين جمالها وفعالهـــا   فاذا الملاحة بالخيانـة لا تفي
والله لا كلمتها ولو انهـــا   كالشمس او كالبدر او كالمكتفي

وكان من المألوف المعتاد بـــين العظماء في ذلك الزمان أن يخطب الأمير رجلاً عظيماً لابنته كما فعـــل الأمير خمارويه ، فقال المعتضد للرسول « إنما اراد خمارويه ان يتشرف بنا وانا ازيد في تشريفه : انا اتزوجها ، وكان المعتضد كثير الميـــل الى النساء وكأنه سمع بجمال قطر الندى فأرادها لنفسه ، وكان في تلـك الايام قد خرج من بغداد الى مدينة بَلد الـــتي فوق الموصل ،

فبعث من هناك بصداق قطر الندى إلى أبيها خمارويه وهو مليون درهم ، مع شيء كثير من المتاع والطيب وتحف الصين والهند والعراق ، وبعث الى خمارويه خاصة كيساً من الجوهر المثمن فيه در وياقوت و نواع من الجوهر ووشاح وتاج واكايل وقلنسوة، وكان وصول ذلك الى مصر سنة « ٢٨٠ » ه .

وحينئذ أخذ خمارويه في تجهيز ابنته قطر الندى بجهاز يليق بعظمة الخلافة العباسية ، وكان من جملة الجهاز دكة من ذهب مركبة من اربع قطع ، عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جواهر عظيمة القيمة ، ومائة هاون من الذهب وقيل الف هاون ، واشياء كثيرة بحيث ان الفضلة التي بقيت من ثمن الجهاز كانت اربعمائة الف دينار ، فوهبها خمارويه لابن الجصاص وقيل ، بل قال له : لعل في العراق مما نحتاج اليه شيئاً ليس عندنا ، فاشتره لها بهذا المبلغ ، فلم يشتر ابن الجصاص شيئاً والطّ المبلغ وأكله . ولما فرغ الامير من جهاز ابنته قطر الندى ، أمر بان يجعل لها في الطريق بين مصر والعراق في كل منزلة من منازل السفر ، قصر كامل وان يكون في هذه القصور ما تستعمله على حسب عادتها في بيت ابيها ، وفي هذا الخبر شيء من المبالغة ، والظاهر انهم ارادوا بالقصور خياماً فيها المنام والطعام والشراب والمستراح والمغتسل ، فكانت اذا وصلت الى منزلة من المنازل وجدت فيها ما يسد حاجتها ، قال احد المؤرخين : « وكانت قطر الندى في مسيرها من مصر الى بغداد على بعد المسافة كأنها في قصر ابيها ، وهذه مبالغة كما قلنا ،

ومنهم من زعم ان المعتضد تزوجها ليفقر أباها ويقلل امواله ، فلا يستطيع أن يبني دولة قوية ، على ان المعتضد اشترط على خمارويه ان يحمل اليه من خراج مصر مائتي الف دينار في كل سنة ، وهذا مقدار قليل على من تولى مصر فانها معدن الاموال .

وكان مع قطر الندى عمها شيبان بن احمد بن طولون ، وخرجت تشيعها من الفسطاط عمتها العباسة بنت احمد بن طولون ، فلما بلغت آخر الاعمال المصرية من جهة الشام ودعتها ورجعت الى مصر .

وذكر المؤرخون ان ابن الجصاص التاجر اخفى جملة صالحة من جواهر قطر الندى ، واعلمها ان ذلك يبقى وديعة عنده الى وقت حاجتها اليه ، ولكنه نام على الوديعة حتى وفاة قطر الندى ، وكثر بها غناه وثروته ، إلا ان ذلك سبب له محناً ونكبات في ايام الخليفة المقتدر ، فقد قبض عليه واخذت منه اموال كثيرة بهذا السبب وبغيره من الاسباب .

ودخل موكب قطر الندى بغداد يوم الاحد لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢ ، وانزلت هي في دار صاعد بن مخلد ، وكانت في الجانب الشرقي على الشط فوق ارض المجيدية ، ولا نعلم موقعها على التحقيق ، وكان الخليفة المعتضد يومذاك غائباً ايضاً بالموصل ، ولأربع ليالٍ خلون من شهر ربيع الآخر ، نقلت قطر الندى من دار صاعد الى قصر المعتضد بالله قرب ارض المحكمة الشرعية الحالية ، وكان انتقالها في سفينة تعرف إذ ذاك بالحراقة ، ومعها عدة حراقات وشذوات ، والشذوات هي سفن صغيرة ، وامر المعتضد ان ينادى بجانبي بغداد ، ان لا يعبر احد

في دجلة يوم الاحد، وأمر باغلاق ابواب الدروب التي تفضي الى الشط، ومد على كل شارع نافذ الى دجلة شراع، ومنع الناس الساكنين على جانبي دجلة ان يظهروا في اجنحة دورهم اي بالكوناتها، لئلا يروا قطر الندى، وهذا امر غريب لا يخلو من التجبر. وسارت حراقة قطر الندى في دجلة بعد العشاء تحف بها الحراقات، وقدامها الشذوات، حتى وصلت الى قصر المعتضد بالله فأخرجت اليه، وأقامت فيه يوم الاثنين، وزفت اليه يوم الثلاثاء لخمس ليال خلون من شهر ربيع الاول من السنة المذكورة – أعني سنة ٢٨٢ –، وفي ذلك قال ابن الرومي:

يا سيد العرب الذي زفت له   باليمن والبركات سيدة العجم
اسعد بها لسعودها بك انها   ظفرت بما فوق المطالب والهمم
ظفرت بمالىء ناظريها بهجة   وضميرها نبلا وكفيها كرم
شمس الضحى زفت الى بدر الدجى   فتكشفت بهما عن الدنيا ظلم

وفي آخر السنة التي زفت فيها قطر الندى قتل ابوها خمارويه بمصر، فقد ذبحه على فراشه بعض خدمه، وكان المعتضد قد بعث مع ابن الجصاص بهدايا الى خمارويه وأودعه رسالة اليه، فخرج ابن الجصاص من بغداد فلما بلغ سامرا وصل الى المعتضد خبر موت خمارويه، فكتب الى ابن الجصاص يأمره بالرجوع، فرجع الى بغداد واعاد معه الهدايا والرسالة.

ولبثت السيدة قطر الندى مع زوجها المعتضد حتى سنة ٢٨٧، ولم تزد مدتها معه على خمس سنوات، فقد توفيت في شبابها ببغداد لسبع ليال خلون من رجب من السنة المذكورة. ودفنت داخل

قصر الرصافة وهو القصر الذي بناه المهدي العباسي ، وكانت الرصافة مجاورة لمدفن الامام ابي حنيفة - كما قلناه مراراً - .

ومما جاء من الأخبار في ادب السيدة قطر الندى ، ان المعتضد خلا بها يوماً في مجلس افرده لها ، ولم يكن فيه أحد سواها ، فأخذه النعاس فنام على فخذها ، فلما استثقل وأغفى وضعت رأسه على وسادة وخرجت من المجلس الى ساحة القصر ، فاستيقظ المعتضد فلم يجدها فاستشاط غيظاً وناداها فأجابته عن قرب ، فقال لها : ألم أخل بك اكراماً لك ، أولم ادفع اليك مهجتي دون سائر حظاياي ، فتضعين رأسي على وسادة وتذهبين ؟ ! فقالت له : « يا امير المؤمنين ما جهلت قدر ما أنعمت علي ، ولكن فيما أدبني به ابي ان قال لي : لاتنامي مع الجالسين ولا تجلسي مع النائمين » .

ولم تترك السيدة قطر الندى اثراً في العراق يبعث الناس على تذكرها ، ولا تدخلت في سياسة الدولة حتى يذكرها التاريخ السياسي ، والظاهر لنا انها على اشتهار جمالها وذيوع صباحتها وملاحتها ، لم تستطع امتلاك قلب المعتضد بالله ، لكثرة الجواري الجميلات في ذلكم الزمان ولا سيما دُريرة جارية المعتضد ، التي اشتهر عنه أنه كان يحبها حباً جماً مفرطا ، وكان زواج قطر الندى سياسياً لا طبيعياً اي لا دخل للقلب فيه ، وربما كانت تأمل - وهو الحق - ان يتزوجها علي بن المعتضد تزوج الشاب بالشابة ، فاستحوذت عليها انانية المعتضد ، وجعلتها تودع الدنيا غير آسفة عليها ، وهي لم تتجاوز من العمر عشرين سنة .

خديجة خاتون السلجوقية

زوجة الخليفة القائم بامر الله

كان اسم هذه السيدة « أرسلان خاتون » ، فاضافت اليه اسم « خديجة » تيمناً وتبركا بهذا الاسم الكريم ، وابوها داود جغري بك هو اخو السلطان طغرل بك مؤسس الدولة السلجوقية ، وكان السبب في تزويجها بالخليفة القائم بامر الله ، رغبة عمها طغرل بك في توثيق الصلة بين البيت السلجوقي والبيت العباسي ، بعد ان استولى على العراق وازال الدولة البويهية المتداعيـــة الواهية ، وازدفر بشؤون الخلافة العباسية وباشرها نيابة عن الخليفة . وكان عقد الزواج في يوم الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ٤٨٨ هـ ، وقد حضر العقـد قاضي القضاة ابو عبد الله محمد بن علي بن الدامغاني المشهور ، وأبو الحسن الماوردي البصري وكان اقضى القضاة ، ورتبة اقضى القضاة اقل من رتبة قاضي القضاة ، وحضر كذلك عميـد الملك منصور بن محمد الكندري وزير طغرل بك ، ونقيب النقباء ابو علي بن غام الزينبي وعدنان بن الشريف الرضي الشاعر المشهور ، والامير تاج الملوك هزارسب بن بنكير بن عياض الكردي ، والأمير ابو علي بن الملك كاليجار البويهي ، والأمير ابن أبي الشوك الكردي ، وعدة امراء من الاتراك ، ووزير

الخليفة ابو القاسم علي بن الحسن الملقب رئيس الرؤساء المعروف بابن المسلمة ، وهو الذي خطب خطبة الزواج ثم قال مخاطباً الخليفة : « إن رأى سيدنا ومولانا امير المؤمنين ان ينعم بالقبول فعل » ، فقال الخليفة : « قد قبلنا هذا النكاح بهذا الصداق » .
وكان الصداق « مائة الف دينار » ، وقد ظل هذا الصداق مضرب الامثال ، وبدعة للجهال من ارباب الاموال ، وهو اعظم صداق واعلاه في تاريخ الدولة الاسلامية ، ولقد ذكرنا في اخبار السيدات اللاتي ذكرنا تزاجهن ، ان السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله وفاطمة بنت محمد بن ملكشاه السلجوقية ، والسيدة رابعة بنت ولي العهد ابي العباس احمد بن المستعصم بالله ، كان مبلغ صداق كل منهن « مائة الف دينار » ، وكان ذلك اقتداءً بالسيدة ارسلان خاتون - أعني خديجة السلجوقية - التي حديثنا الليلة عنها .

وفي اوائل شعبان من السنة المذكورة - اعني سنة ٤٤٨ ، مضى الوزير ابو القاسم ابن المسلمة ، الى طغرل بك بدار المملكة وكانت في محلة العيواضية ، كما قلنا غير مرة ، وقال له : « امير المؤمنين يقول لك : ان الله تعالى يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، وقد اذن في نقل الوديعة الكريمة الى الدار العزيزة » ، فقال : « السمع والطاعة للأوامر الشريفة » ، وكان قد نقل من دار المملكة الى دار الخلافة العباسية ، وكانت تحت شارع السموءل ، كثير من المال والجواهر واليواقيت واواني الذهب والفضة ، والجنائب والبغال والعماريّات وهي الكجاوات ، ونقل مع ذلك كله ثمانون جارية أبكاراً مملوكات ، عليهن اقبية الديباج والمناطق

المجوهرة وتحتهن الخيول المسوّمة والبغال الرومية ، وست عماريات على البغال ، وعلى قبابها جواهر وغير ذلك ، هذا بعض الجهاز ، والحقيقة ان هذه السيدة كانت موعودة ان تزوج بذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله ، فلما توفي وانقطع الأمل بموته عـدل عمها الى القائم بامر الله والد ذخيرة الدين ، لينال المصاهرة التي يتجمل بها على الملوك وينال بها غير ذلك .

ومضت السيدة قطر الندى والدة الخليفة من دار الخلافة الى دار المملكة في الزبازب على دجلة ، وارسيت الزبازب عند دار المملكة ، وارسلت زوجة طغرل بك التونخان في نقل خديجـة خاتون الى دار الخلافة ، فأرسلت بها اليها من دون ان تخرج اليها اما تكبراً ، واما أنفـة من هـذا الزواج بين امرأة شابة وشيخ ، وهو خلاف قانون الخلقة ، فانحدرت الخليفـة ليلاً الى باب الغربة ، اي عند شريعة المصبغة الحالية وقد ضربت على دجلة سرادقات لتسير تحتها ، فدخلت دار الخلافة من باب الغربة المذكور اي باب سوق المستنصر الحالي ، وكان مع الخاتون عميد الملك الكندري وزير الامبراطورية السلجوقية ، وقد ذكرناه ، فحضر بين يدي الخليفة القائم بأمر الله وقبل الارض وقـال : « الخادم ركن الدين طغرل بك قد امتثل المراسم العالية في حمل الوديعة وسأل فيها كرم الملاحظة واجتناب الضيعة » ، ثم انصرف.

وأدخلت خديجة ارسلان خاتون على الخليفة القـائم بأمر الله فقبلت الارض مراراً ، فأدناها اليـه وقربهـا منه وأجلسها الى جنبه ، وطرح عليها فرجية وهي نوع من لملابس يطرح على

الكتفين والظهر ، وكانت الفرجية منظومة بالذهب ، ووضع على رأسها تاجاً مرصعاً بالجواهر ، واعطاها من الغد مائة ثوب من الديباج ومن قصب الذهب ، وطاسة من ذهب قد نبت فيها الياقوت والفيروزج ، وعقداً من اللؤلؤ له قيمة عظيمة ، وافرد لها من الاقطاع اثني عشر الف دينار في كل سنة ، تكون اربعة وعشرين الف دينار من دنانير اليوم .

وبقيت خديجة خاتون في دار الخلافة العباسية ، ولقبت بالجهة القائمية كناية عن السيدة القائمية ، وبعد زواجها بسنتين ، حدثت بالخلافة العباسية الحادثة الكبيرة والرزية العظيمة ، من استيلاء أبي الحارث ارسلان البساسيري القائد التركي سنة ٤٥٠ ، على بغداد واكثر العراق ، وقطعه لخطبة بني العباس ، وخطبته للمستنصر بالله الخليفة العلوي الفاطمي على منابر بغداد ونواحيها ، فظفر فيمن ظفر به هذا القائد بالسيدة خديجه خاتون وكانت أموالها قد نهبت فالزمها واحترمها وسلمها إلى أبي عبدالله بن جردة ، أحد أثرياء بغداد الكبار وتجارها إذ ذاك ، ليقوم بخدمتها ، وكان ابن جردة المذكور قد ضمن لعلم الدين قريش بن بدران العقيلي امير بني عقيل أي عرب عكيل الحاليين ، وكان مع ارسلان البساسيري ، عشرة آلاف دينار ، ليحفظ له داره ومن التجأ اليها من نهب الجند الفاتحين وسوء سيرتهم ، فكانت هذه الحادثة محنة كبيرة لخديجة خاتون ، فقد شهدت اسقاط الخلافة العباسية ونفي القائم بأمر الله إلى حديثة عانة ، وحدثت في السنة

نفسها وفاة والدها داود جغري بك بخراسان ، فاشتدت مصيبتها وعظمت .

ولما أصعد ابو المعالي علم الدين قريش بن بدران امير عقيل من بغداد الى تكريت ، في آخر المحرم من سنة ٤٥٠ ، وذلك بعد نهبه المدينة اخذ معه خديجة خاتون معزة مكرمة ، ثم أرسل بها الى عمها طغرل بك مع رسول اسمه « نجدة » ، وأصحبه رسالة الى السلطان المذكور يعده فيها ان يرد الخليفة القائم بامر الله ، من حديثة عانة إلى عاصمة ملكه بغداد ويطلب الزلفى عنده ، وكان إرسال قريش بالخاتون الى عمها بأمر ابي الحارث ارسلان ، فانه بعث اليه يشير عليه بان ينفذ ارسلان خاتون الى السلطان طغرل بك ، ولما وصلت خديجة خاتون الى عمها ارسلت الى زوجها الخليفة القائم بأمر الله ، اربعين ثوباً انواعاً وعشر دسوت من الثياب وخمس دسوت مخيطة ، وعشرة آلاف دينار ، لان حاله قد تضعضت بعد نفيه الى حديثة عانة ، ولبثت ارسلان خاتون بعد هذه الحادثة مع عمها طغرل بك الى سنة ٤٥٣ ، ولكنها كانت تتفقد احوال زوجها الخليفة القائم بأمر الله على عادتها ، فانه لما أعيد الى بغداد من حديثة عانة بعثت اليه مع عمها طغرل بك باثنتي عشرة حبة من اللؤلؤ الكبار ، وطلبت الى عمها ان يقول له : « ارسلان خاتون تخدم امير المؤمنين وتسأله ان يسبح بهذه السبحة » ، فقبلها الخليفة شاكراً .

وفي سنة ٤٥٢ ، توفيت آلتون خاتون زوجة طغرل بك ، وكانت عاقلة سديدة الرأي وكان السلطان يفوّض امره اليها ،

على عادة الاتراك في تعظيم نسائهم من قديم الزمان ، وكانت قد اوصته قبل وفاتها بأن يتزوج ابنة الخليفة القائم ، لينال شرف الدنيا والآخرة ، واوصت بجميع مالها لبنت الخليفة المنوية خطبتها المزمع زواجها ، وهذا من عجيب اخبار النساء في الاستقامة والصلاح ، واراد طغرل بك ان ينفذ وصية زوجته آلتون خاتون ، فأرسل رسولاً الى الخليفة القائم بأمر الله يخطب اليه السيدة ابنته ، واتفق ان وصل الى طغرل بك رسول من الخليفة حمّله رسالة تتضمن المطالبة باعادة ارسلان خاتون اليه ، فأرسلها طغرل بك اليه ، ورأى في هذه الاجابة تسهيلاً لزواجه بابنة الخليفة ، ولكنَّ الخليفة لما علم بطلب السلطان ثقل عليه ذلك وانزعج منه ، وطال الكلام بين السلطنة والخلافة — على ما سنذكره في محله من ترجمة السيدة ابنة القائم بأمر الله — .

وفي شهر ربيع الآخر من سنة ٤٥٣ ، قدمت ارسلان خاتون دار الخلافة ومعها الوزير عميد الملك الكندري ومعها الصداق والجهاز لابنة الخليفة ، وقيل كان قدومها في جمادى الأولى ، فامتنع الخليفة من ذلك وأنكر الطلب كل الانكار ، فلما بلغ طغرل بك ذلك ارسل الى بغداد يأمر وزيره الكندري المذكور ، بنقل ارسلان خاتون من دار الخلافة الى دار المملكة جزاءً بما رد الخليفة طلبه وكفاءً له ، ولا سيما بعد ان خاطبته ارسلان خاتون في ذلك فلم يزدد الا إباء . ثم كتب طغرل بك كتاباً الى ارسلان خاتون ، يستعجلها في ان تترك بغداد ويتضمن اشتياقاً اليها وايثاراً لمشاهدتها ، ورسم لها فيه المسير اليه وضيق العذر عليها في التأخر ، فامتعض الخليفة من ذلك ، ثم علم ان سبب ذلك اقامته على الامتناع من تزويج ابنته بطغرل بك .

وفي سنة ٤٥٤ ، اجبر الخليفة القائم بأمر الله على ان يزوج ابنته بالسلطان طغرل بك ، وجاء رسول من طغرل بك الى ارسلان خاتون ، ومعه اشياء بعث بها السلطان الى الخليفة فاوصلتها اليه ، ثم قدم طغرل بك بغداد فزفت اليه السيدة بنت الخليفة ومضت معها ارسلان خاتون وبعث معها طغرل بك بعقدين فاخرين ، وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، وخسرواني ذهب ، والظاهر ان الخليفة القائم بامر الله لم يكن له همّ بالنساء ، اما لكثرة المصائب التي قاساها واما لامر آخر كالزهد والاعتزال ، فان ارسلان خاتون كانت تشكو من اطّراحه لها وانه لم يقربها منذ اتصل بها ، فحمل ذلك عمها طغرل بك على ان يستأذن لها الخليفة في ان تسير معه وتبقى مدة ستة اشهر ، فأبى الخليفة ذلك ، وأصرّ عمها على ذلك محتجاً بانها مطرحة معزوف عنها ، فسافرت معه .

وتوفي السلطان طغرل بك سنة ٤٥٤ ، وارسلان خاتون مع اهله ، وفي شوال من سنة ٤٥٨ ، انفذ الخليفة القائم بامر الله خادماً من خواص الخدم الى السلطان آلب أرسلان ابن اخي طغرل بك وهو اخو ارسلان خاتون ، للتهنئة بسلامته في غزوة غزاها الروم ، وللخطاب في رجوع زوجته الخاتون الى بغداد ، فقد طالت غيبتها. وفي ربيع الآخر من السنة ، ورد الخبر بعودتها الى بغداد ، وفي جمادى الآخرة دخلت بغداد مع الخادم المرسل اليها ، وخرج اهل بغداد لتلقيها على فرسخ واحد من المدينة ، وخرج الوزير فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير لاستقبالها .

وبقيت ارسلان خاتون في دار الخلافة العباسية حتى سنة

٤٦٥ ، ففي هذه السنة خرجت من بغداد الى الريّ ، وانقطعت اخبارها في التواريخ التي تحت يدينا ، وهي اول الخواتين بدار الخلافة العباسية ، وقد كررت التواريخ ذكرها ، لبلوغ مهرها مائة الف دينار ، ولم يكن لها من المآثر ما تكون به قـدوة للنساء ، الا ان اسمها مقرون باعظم الاحداث في الدولة العباسية ، والتاريخ الصحيح لم يخل من المرأة قط ولن يخلو منها ابداً .

السيدة بنت القائم بأمر الله

زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي

حديث هـذه السيدة الكريمة يأكل الاحاديث ، ويبعث على العجب ويحدو على الاستغراب ، فهي العذراء المتزوجة والمتزوجة العذراء ، ولقد ألمعنا اليها بالقول عدة مرات في التراجم السابقة ، وها هنا تفصيل القول في سيرتها واخبارها .

ذكرنا فيما سلف من سير سيدات البلاط العباسي ، ان التونجان زوجة السلطان طغرل بك السلجوقي توفيت سنة ٤٥٢ هـ ، وكانت في ساعة احتضارها وانتقالها الى دار قرارها ، قالت لزوجها : « اجتهد في ان تتزوج بابنة الخليفة القائم بامر الله ، فتحصل لك الوصلة بينك وبين بني العباس ، لتنال شرف الآخرة بعد ان نلت شرف الدنيا » . واوصت بجميع مالها لبنت القائم المحضوض على زواجها ، المثار عزم السلطان على خطبتها ، وكانت وفاة التونجان بمدينة جرجان من بلاد ايران ، فحزن السلطان طغرل بك عليها حزناً عظيما ، وحمل تابوتها معه الى مدينة الري فدفنها فيها ، وعزم على تحقيق اقتراحها ، والسعي في الزواج بابنة الخليفة القائم بأمر الله ، واتفق ان الخليفة ارسل الى طغرل بك قهرمانته واسمها

صلف ، وخادمه الخاص موفقا ، مؤسس المدرسة الموفقية ببغداد ، ليحملا الى بغداد زوجته خديجة ارسلان خاتون بنت داود جغري السلجوقي ، فعادا الى بغداد بغير شيء ، وجاء معها القاضي ابو يحيى سعد بن صاعد قاضي الريّ ، برسالة من طغرل بك الى الخليفة ، تتضمن خطبة السيدة ابنته ، قيل ان وزير طغرل بك عميد الملك منصور بن محمد الكندري وقهرمانة الخليفة صلف أطمعا طغرل بك في امكان الزواج ، فلما اطلع الخليفة على الطلب ثقل عليه جدا ، وانزعج منه ، فتكلم القاضي ابو يحيى سعد بن صاعد في بيت النوبة من دار الخلافة ، كلاماً يشبه التهدد وانه ان لم يجب الخليفة الى ذلك ساء ما بينهما ، فقال الخليفة : « هذا الزواج لم تجر به العادة لأحد من الخلفاء ، وركن الدين طغرل بك هو عضو الدولة وركنها ، وهو المحامي عنها والماحي لكل اذى منها ، وما يجوز له ان يسومنا هذا ، ويطالبنا به » ، ثم اجاب الى الخطبة اجابة خلطها بكثرة الاقتراحات ظنا منه ان ذلك يبطل اتمامها ، ويحمل طغرل بك على تركها ، فمن اقتراحاته ان تسلم اليه مدينة واسط ، وتعطى ابنته جميع ما كان لآلتونخان من الاملاك والاقطاع والرسوم في سائر الاصقاع ، فضلاً عن المال الذي تركته ، مع ثلاثمائة ألف دينار من الذهب العين برسم المهر ، وان يكون مقام السلطان ببغداد دائما ، وكان العميد ابو الفتح المظفر بن الحسين والي بغداد وعميد العراق من قبل السلطان حاضراً ، فقال : « اما الملتمس فمجاب اليه من المهر وغيره من جهتي عن السلطان ، ولو كان اضعاف المبلغ ، فانْ امضيتم الامر وعقدتم العقد سلم المبلغ جميعه ،

واما مجيء السلطان الى بغداد ومقامه فيها وان لا يحدث نفسه بالرحيل ، فهذا امر لابد من عرضه عليه ، فلما رأى الخليفة القائم ان الشروط التي اشترطها وادخلها في الاقتراحات لا تحول دون تزويجه ابنته بطغرل بك ، اسف على قوله وندم لأن المانع الأصلي عنده كان من موانع الكفاءة التي قيل قديماً فيها :

فطلقها فلست لها بكفء والا يعل مفرقك الحسام

فالسيدة بنت القائم عربية قرشية هاشمية عباسية ، من بيت الخلافة وطغرل بك تركي سلجوقي سلطان بني سلجوق فلم يكن كفؤا لها ، واضطر الخليفة الى ان ندب القاضي ابا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الحنبلي المشهور في تاريخ الدولة العباسية ، الى الخروج الى الري ولقاء السلطان طغرل بك ، والاستقصاء في الاستعفاء من هذا الزواج المطلوب ، واصحبه تذكرة ، والتذكرة عندهم آخر الشروط وغاية الكلام المحرر ، وقال له : « ان تم الامر فهو المراد ، والا فاعرض التذكرة على السلطان على مضض مني وكره لذلك » . وأرسل معه أبا الفوارس طراد بن محمد الزينبي الملقب بالكامل ، نقيب الهاشميين ، وبعث معهما بخلع وهدايا للسلطان طغرل بك ، ورسم لابي محمد التميمي ان يستعين عميد الملك منصوراً الكندري وزير السلطان ، على العدول عن هذه الخطبة ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار .

ودخلت سنة ٤٥٣ ، والمراسلة في اولها ، وفيها عزل طغرل بك ، ابا الفتح المظفر بن الحسين عميد العراق ، وولى مكانه أبا احمد عبد الواحد بن الخضر النهاوندي ، ولقبه « رئيس العراقين » ،

واذن له في القبض على ابي الفتح عميد العراق ، فلما علم هذا بالامر التجأ الى دار الخليفة القائم بامر الله مستجيراً بها ، وفي شهر ربيع الاول من السنة المذكورة دخل رئيس العراقين بغداد ، واجتاز بدار الخلافة ولم يدخل فيها ونزل في خيم تحت دار المملكة ، وكأنه كان قد نزل في ارض المجيدية ، ومد يده الى إقطاع الخليفة وهو قوام معيشته في ذلك الزمن زمن استبداد السلطنة ، وحدث ان ضُرب غلامان له ، ضربهما جماعة من بني هاشم ، فبعث غلمانه في السفن حتى قابلوا قصر التاج وفيه الخليفة القائم وكان قصر التاج على الشط قرب المحكمة الشرعية ، فرموا القصر بنشابتين واخذوا زورقاً للخليفة كان فيه شعير ، فانزعج الخليفة والناس وجرت من هذا الوالي امور ثقلت على الخليفة ، فعوتب ولكنه لم يُفد معه عتاب ، وشعر الخليفة العباسي انه انتقل من استعمار بني بويه الى استعمار بني سلجوق ، وان حرمته كانت اعظم في عهد بني بويه ، منها في عهد السلاجقة الذين جاؤوا لانقاذه من الذل .

أما رسل الخليفة الى طغرل بك بالاستعفاء من ابرام أمر الزواج فانهم وصلوا الى همذان ، وكان السلطان فيها ، ثم اجتمعوا به واعطوه الكتب والهدية والخلعة وهي جبة ديباج مذهبة ، وفرجية منسوجة بالذهب وعمامة مشبكة مذهبة ، فأعرب طغرل بك على تعظيمه لذلك ووضع الفرجية على كتفيه ، ثم اذن لهم في الانصراف ، وحضروا من الغد في دار المملكة بهمذان ، وطيف بهم في مجالسها ، وكان فيها بيت في صدره دست مؤزّر ومفروش بالنسيج ، فيه

سماط من ذهب عليه تماثيل البلور والكافور والمسك والعنبر ، وكان ما في السماط وحده يساوي أربعمائة الف دينـــار ، وفي الدار عدة بيوت مملوءة من فاخر النسيج والفراء كالسنجاب والسمور وابي قلمون ، وفيها شيء كثير من الآلات والفراش والجواهر واليواقيت ، وقيل لهم : «كل هذا برسم الجهاز للسيدة المطلوبة الخطبة» . ثم انصرفوا وبقي ابو محمد رزق الله التميمي ، فانه خلا بالوزير عميد الملك الكندري وفاوضه في امر الزواج ، وطلب منه ان يحمل سلطانه على ترك الخطبة ، وعرض عليه التذكرة التي بعثه بها الخليفة ، فقال له عميد الملك : « هذه الرسالة والتذكرة لا يمكن عرضها على السلطان ، فان الامتناع لا يحسن بعد السؤآل والضراعة ولا تحسن المطالبة بالبلاد والاموال بازاء الرغبة في الافتخار والجمال ، ومتى طرق هذا سمع السلطان وعلم ان الخليفة يرغب في الاشياء لا فيه ، ويؤثر المال ولا يؤثره فربما تغيرت نيته وحدث منه ما لا نؤثره ، وهو يفعل في جواب الاجابة اكثر مما يطلب الخليفة » . فقال له ابو محمد التميمي : « الأمر اليـــك والتعويل عليك فافعل ما تراه ، والان له القول ، فسكن عميد الملك الى ذلك وبنى عليه ان الخليفة موافق على تزويج ابنته اذا نفذت الشروط ، وقال للسلطان : « ان اجابة امير المؤمنين القائم بامر الله قد حصلت » ، فسر السلطان : سروراً عظيماً وجمع الوجوه والاكابر وعرفهم الامر ، وقـال لهم عميد الملك : « ان السلطان يذكر لكم نعمة الله عنده ، وبلوغه ما لم يبلغه احد من السلاطين قبله ، بسبب هذا الاتصال بامير المؤمنين ، يعني المصاهرة

ثم اراد الوزير ان يأخذ خط رسول الخليفة واقراره بالقبول ، فأبى الرسول وكتب خطه بمقتضى رسالة الخليفة وتذكرته ، فشق ذلك على عميد الملك وصعب عليه ، لانه ظن نفسه ناجحاً في ابرام زواج السلطان ، فعاد الامر كما كان . والظاهر انه لم يطلع سلطانه على خط ابي محمد التميمي رسول الخليفة لتبقى القضية مبهمة فينجو من تبعتها عند السلطان . ثم امر السلطان وزيره عميد الملك بالمسير الى بغداد مع بنت اخيه خديجة ارسلان خاتون زوجة القائم بأمر الله — وكانت معه كما ذكرنا — لابرام العقد . وبعث معها فروخ خادمه الخاص وقاضي الريّ ابا يحيى سعد بن صاعد ، واصحب الخاتون مائة الف دينار من مهر بنت الخليفة ، وآلات ذهب وفضة وغيرها من ادوات الجهاز ، حتى الجواري والكراع ، وفي جملة ذلك الفان ومائتان وخمسون قطعة من الجوهر ، فيها سبعمائة وعشرون قطعة وزن الواحدة ما بين ثلاثة مثاقيل الى مثقال ، وقال للخاتون : « ان لم يُنعم الخليفة ويُجب الى تسليمها فأقعدي فرّوخ برسم خدمتها والقيام على باب حجرتها » .

وكان عميد الملك قد تلكأ في السفر الى بغداد ، ودافع وقال للسلطان طغرل بك : « قد كنت كتبت الى هزارسب بن بنكير ابن عياض الكردي ، والي البصرة والاهواز حتى يُحضر مائة الف دينار مما عليه ، ولا نخرج من خزانة الدولة شيئاً ، وانا على انتظاره » ، فقال له السلطان : « لا تفعل وخذ من الخزانة فانا يقبح بنا ان لا يكون في خزانتنا ما نصرفه في هذا الامر » . فحينذاك لم يجد بدأ من المسير مع علمه بغموض المصير . وقال

الحجاب والامراء الذين معه : « إننا منفذون الى الخليفة في هـذه المصاهرة والوُصلة فما الثقة بان الخليفة يفعلها ويسلم ابنته الينا ؟ فربما لا يفعل فنعود ولم نقض حاجة السلطان ، وتحصل من ذلك قباحة وُسبّة » . فقال لهم السلطان : « ان فعل الخليفـــة فذاك وان لم يفعل فعودوا ، لأننا اردنا ان نعلم رأي الخليفـــة فينا وموضعنا عنده » ، وامر الجميع بالمسير الى بغـــداد ، فساروا ثم وصلوا اليها في يوم الخميس لثمانٍ بقين من جمادى الاولى من سنة ٤٥٣ ، واستقبلهم من بلدة النهروان تحت بعقوبا امين الدولة ابن دارست وزير الخليفة ، واظهر لعميد الملك التعظيم والتكريم .

ولما دخل عميد الملك بغداد لم يدخل دار الخلافـة بل جلس على باب النوبي ، الى ان دخلت ارسلان خاتون دارها فدخل معهـــا الدار ، ثم انصرف الى دار المملكة في ارض العيواضية الحالية ، فنزل فيها وارسل من وقتـه يستدعي العميد ابا الفتح المظفر بن الحسين رئيس العراقين ، وكان بدار الخلافة على ما ذكرنا لاجئاً اليها ، وبعث اليه بخاتمه ايماناً له ، فجاء اليه فعاتبه عميـد الملك وقال له « اكلت ضمان بغداد سنة ولم توفِ » . ثم تركه حراً اياماً ، وبعد ذلك قبض عليه وقيده ثم ضربه بالخشب وبقي في الاعتقال ، حتى اخرج له الف دينار ، وكفله احـد الامراء ثم اخرج من بغداد الى باب السلطان بهمذان ، ليلقى هناك حسابه ، ويعرض اعماله ويزيل التهمة عن نفسه .

ولما علم الخليفة القائم بامر الله بهذه الامور كلها ، ايقن ان الشروط التي سيّرها مع القاضي ابي محمد التميمي والاقتراحات لم

يجيء جواب محرر عنها ، وعلم ان المهر قد حمل منه مائة الف دينار ، فاظلمت الدنيا لعينيه ، وظهر له سوء تدبيره ، ولما طولب بابرام العقد قال : « ان هذا تشنيع وتبشيع لا خفاء به ولم تجر به عادة احد من الملوك بأخذ احد من الخلفاء بمثله ، وامتنع من العقد ، ثم قال « إن أعفَ من ذلك والا خرجت من بغداد » ، ولم يفد حضور عميد الملك دار الخلافة فائدة ، لان الخليفة أصرّ على الامتناع والاباء ، فبعث عميد الملك الى ارسلان خاتون في ان تخاطب الخليفة في معنى المصاهرة والوصـلة ، فخاطبته وهي زوجته – كما هو معلوم – ، فاقام على امتناعه ورفضـه ، وإذ تقطعت بعميد الملك الاسباب ، اخذ يطلق لسانه بالقبيح في ذكر الخليفة ، وقال : « قد كان يجب الامتناع في اول الامر ولا يكون اقتراح ولا تذكرة ، وهذا الامر ان لم يتم كان سعياً في دمي عند السلطان » ، ثم غضب واخرج نوبته أي طبوله ، لان الوزير كان اذا سار ضربت الطبول بين يديه وتضرب الطبول أيضاً ببابه في اوقات الصلوات الخمس ، فضربهـا بالنهروان ، وعزم على الخروج ، فسأله ابو منصور عبد الملك بن يوسف ، الوجيه البغدادي المشهور في تاريخ بغداد ، وقاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني ان يتوقف ، وكاتبا خليفة بني العباس القائم وأرهباه وخوّفاه وخامة العاقبة ، وحسّنا له العقد بشرط ان يشهد عميد الملك وقاضي الريّ ابو يحيى سعد بن صاعد على انفسهما – بحكم وكالتهما – ، انهما لا يطالبان بالسيدة المخطوبة المطـلوبة مدة اربع سنوات . ثم استُفتي الفقهاء فيما حدث بين السلطنة والخلافة ، وتعليق الخليفـة

العقد على الشروط التي ذكرها ، فقال الحنفيون : « ان العقد صحيح والشرط باطل » ، وقال الشافعيون « ان العقد باطل اذا دخله شرط » ، وكان الخليفة شافعياً فاحتج بمذهب الشافعي ، وامتنع من تزويج ابنته .

وزار عميد الملك الخليفة فوعظه ومنعه مما قد لج فيه ، فقال له : « وانا اردّ هذا الامر يا منصور بن محمد الى ديانتك ، وقد علمت ما فيه من الوهن على بني العباس ولم تجر لهم به عادة » .

وكتب الخليفة كتاباً الى احد اصحاب السلطان طغرل بك ، يشكو فيه ما لقيه من اصحاب السلطان من العدوان ، اذ لم تكن هذه المعاملة معاملة من يطلب الشرف بالمصاهرة ، والتجمل والثواب في الآخرة .

- ٢ -

وإذ كانوا على تلكم الحال ورد على عميد الملك من طغرل بك كتاب يأمره فيه بأن يرفق بالخليفة ، وان لا يخاطب في هذا الأمر إلا بالجميل ولا يكرهه احد عليه ، وانكر ما فعل به اصحابه ، فكتب عميد الملك كتاباً الى سلطانه يستأذنه فيما يفعل إذن ، وأقام يرعد ويبرق ويقول فيكثر ، والخليفة يحتمله ويصبر . وذات يوم صنع له امين الدولة ابن دارست وزير الخليفة دعوة في ديوان الخلافة ، فشرع يأكل وغلمانه يتصافعون ويتضاربون بالمخدات حتى تقطعت ، وهذا دليل على احتقارهم صاحب الدعوة ، ومعلوم أن صاحبها هو الخليفة . وجاء يوماً الى ديوان الخلافة وعليه ثياب بيض وتحته بغلة بيضاء ، مع ان شعار بني العباس

السواد ، فثيابهم سود وعمائمهم سود إلا في ايام الحزن والعزاء فانهم يلبسون الثياب البياض ، فعوتب وزير السلطان على مخالفة رسوم الدولة العباسية وآيينها ، فقال : « هذا هو اللباس على ما جاءت به السنة النبوية » . ثم حضر عميد الملك في جمادى الآخرة من السنة ، بحضرة الخليفة القائم بأمر الله ومعه القضاة وغيرهم ، وكان من عادة الخليفة في الظهور للزائرين انه يجلس خلف ستار ثم يزاح هذا الستار فيراه الرائي ، فشرع عميد الملك يستطعم الخليفة الكلام ويستدرجه اليه ، وقال « أسأل مولانا امير المؤمنين الدخول في ذكر ما شرّف به ركن الدين طغرل بك ، الخادم الناصح العبد المخلص وفيما رغب فيه وسمت نفسه اليه ، ليسمع الجماعة كلام امير المؤمنين » ، فقال الخليفة « نحن بنو العباس ، خير الناس بنا رشد واهتدى ، ومن ناوأنا ضل وغوى ، وقد سطر في هذا المعنى ما فيه كفاية » ، واسبلت الستارة بينه وبينهم ، فانصرف عميد الملك مغضباً ، وسار عشية الثلاثاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة طالباً همذان ومعه المال والجواهر ، وبقي الناس وجلين خائفين من اضطراب الأمر وانقطاع الاتصال بين السلطنة والخلافة العباسية ، واستمرار النزاع من اجل السيدة بنت القائم .

وفي شهر رجب من السنة المذكورة - اعني سنة ٤٥٣ - ورد رسول الوزير عميد الملك إلى ابي نصر احد اصحابه ببغداد ، يذكر فيه ان السلطان ارسل اليه بكتاب يقول فيه « ان الخليفة إن لم يجب إلى المصاهرة والوصلة التي سألها فطالبه بتسليم ارسلان

خاتون وردها الي ، واني سأسير الى بغداد وأتولى خطاب الخليفة في هذا » ، وامره بترك المال والجهاز ببغداد . ويقول عميد الملك في كتابه « وقد أعدتُ هذا الرسول الى بغداد لنقل الخاتون الى دار المملكة ، الى حين اجتماعي بالسلطان واصلاح هذه القضية » ، وكاتب الوزير ارسلان خاتون بمثل ذلك ، فازداد الانزعاج ودافع الخليفة عن الاجابة ، فشرع رئيس العراقين عبد الواحد النهاوندي في خرق الهيبة ، وهجم دار الخلافة مراراً واخذ من التجأ اليها ، وقبض على احد المقدّمين الذين بعثهم الخليفة ليتولوا بعض اقطاعه ، وكان لائذاً تحت قصر التاج الذي فيه الخليفة ، فأخذ منه العمامة واللحاف ، والخليفة يشاهده فاستغاث الرجل بخدم الخليفة الذين كانوا على الروشن اي البالكون ، فلم يستطيعوا عونه ، وادخل رئيس العراقين يده في اقطاعات الخليفة والحاشية والخدم ، وطالبهم بالحقوق التي كانوا قد ادوها . فعل ذلك كله لايذاء الخليفة واجباره على تزويج ابنته ، فاظهر الخليفة العزم على الخروج من بغداد وامر باصلاح طيّاره وهو من السفن السريعة ، وانزعج الناس من ذلك ثانية وتوقعوا حدثاً منكراً وخافوا . فلما رأى الخليفة ذلك أمر فنودي فيهم ، (ان الخليفة غير عازم على ترك بغداد) ، فسكتوا وهدأ روعهم ، ثم وصل الى رئيس العراقين كتاب من طغرل بك ، يأمر فيه بقبض ما في يد الخليفة من الاقطاع وما في يد حاشيته ، وان لا يترك له إلا مكان مقرراً لابيه القادر بالله ، وان يطالبه بتسليم حاجبه لان السلطان اتهمه بافساد ذات البين ، فحضر رئيس العراقين بيت النوبة من دار الخلافة ، وعرض

على ديوان الخلافة ما امره به السلطان، فقال له الخليفة : « اما الاقطاعات فبين ايديكم ، واما الحاجب فليس لما نسب اليه أصل ولا حقيقة ، ويحضر قاضي القضاة فيستحلفه بالايمان التي تبرىء ساحته ، فأما المطالبة بتسليم خواصنا وأصحابنا وثقاتنا فمما لا نفعله » ، وبالغ رئيس العراقين في استعمال القبيح في حق الخليفة ، وخرق هيبته ورفع الحشمة والحياء ، واستولى ايضاً على الجوالي وهي جزية اهل الذمة ومقدارها الف وخمسمائة دينار ، وكانت داخلة في اقطاع الخليفة ، فصعب ذلك عليه ، وبعث الى رئيس العراقين ابي منصور عبد الملك بن يوسف وقال قل له : « ان ركن الدين طغرل بك ما جعل هذه الجوالي لنا فيأخذها منا ، وانما هي اصل من اصول الشريعة يتعلق بنا فلا يجوز صرفه عنا » ، فقال رئيس العراقين لرسول الخليفة : « هل أخاطر بنفسي مع سلطاني في خدمة الخليفة ، وورائي اعداء ينقلون الى السلطان عني انني مقصر في ما اعتمده في حق الخليفة ، وقد كنت ارجو ان ينصلح الأمر وما أراه الا قد تفاقم ، وتزايدت الوحشة والكتب ترد عليّ من السلطان ، بكل ما يزيد النفرة والوحشة بينه وبين الخليفة » فقال له الرسول : فرّجْ عنا فنحن ندبر أمر المصاهرة والوصلة ، ونريد ان نواسل السلطان بذلك ، فرفع رئيس العراقين يده ، وانسلخت سنة ٤٥٣ والحال بين السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية ، على ما ذكرنا من الاختلال والاعتلال والمراسلة والاحراج ، وكانت اكثر الجراءة على الخليفة من عمل عميد الملك الوزير .

وأيقن الخليفة القائم بامر الله بان القوم غير تاركيه حتى يجيب الى الزواج ، وفي صفر من سنة ٤٥٤ أرسل من قبله أبا الغنائم بن المحلبان أحد ثقاته ، الى طغرل بك لتلافي الأمر وخوفاً من بُعد المرام واتساع الخرق وغضب السلطان المتزايد ، واستشهد الخليفة على نفسه بالاجابة الى الزواج ، قاضي القضاة أبا عبد الله الدامغاني ، وابا منصور عبد الملك بن يوسف ، وكتب وكالة لعميد الملك وزير طغرل بك ، في ابرام العقد ، أجاب الخليفة الى ذلك مكرها مجبراً بعد ان تمنع وتأبّى وأقدم واحجم ، وبعد خمسة ايام من خروج رسول الخليفة ورد بغـــداد كتاب من السلطان يتضمن رد الاقطاع الى الخليفـة والاعتذار مما جرى به سوء المقدار ، من تلك الأمور المكروهة والافعال القبيحة ، وجاء في الكتاب « ان رسولاً من قبل السلطان وارد على الخليفة ، بهدية ومشافهة تتضمن التنصل من كل ما جرى عليه من الاضطهاد ، فطابت النفوس ووقعت البشائر ببغداد ، وخلع على الركابيّة الذين حملوا كتاب السلطان طغرل بك ، وطيف بهم ببغداد والطبول والبوقات تضرب بين أيديهم ، وكاتب الخليفة رسوله ابن المحلبان وكان قد وصل الى شهرزور بالتوقف عن المسير ريثما يصل رسول السلطان طغرل بك الى بغداد برسالة فيكون جواب الخليفة بمقتضى الرسالة ، فأقام ابن المحلبان هناك متعللاً بالأمطار وكثرة الثلوج ، وبأن خرّاجاً خرج في رجليه منعه عن الركوب .

ولما طالت ايام ابن المحلبـــان بشهرزور ، وعرف السلطان طغرل بك ان الخليفة أمره بالتأخر غضب واغتاظ ، وانفذ بكتاب

الى ابنة أخيه ارسلان خاتون زوجة الخليفة ، يدعوهـــا به الى الخروج من دار الخلافة والتجهز الى الريّ ، فانه مشتاق اليها - على ما ادّعى - ومؤثر لمشاهدتها ، فاستأذنت زوجها الخليفة فلم يأذن لها ، ثم سأل عن السبب الذي حمل طغرل بك على ذلك ، فقيل له : سببه تأخر رسولك ابن المحلبان عن السفر الى حضرة السلطان بقبولك التزويج ، فقال قولوا لهم : « انما توقف لانتظارنا الرسول الذي ذكرتم إنفاذه الى بابنا لنسمع رسالته ، ويكون إنفاذهما جميعاً ، أما وقد استشعرتم فنحن نأمر ابن المحلبان بالاتمام » ، وكتب اليـــه بالمسير من شهرزور الى السلطان فسار ووصل الى حضرته .

وفي يوم الخميس الثالث عشر من شعبان في سنة ٤٥٤ عقد العقد للسلطان طغرل بك على السيدة بنت القائم بامر الله ، بظاهر تبريز في الاسم دون الحقيقـــة ، فلا يتصل بها ولا يلامسها حتى يفرق بينهما الموت ، وكان ذلك من الظلم العبقري الذي فعله طغرل بك ، وعمل للعقد سماط عظيم واحتفال جسيم ، وكتب ابن المحلبان الى الخليفة رسالة يخبره فيها ، انه احتفل به أعظم احتفال وقرىء توقيع الخليفة الى السلطان على رؤوس الاشهاد والسلطان حاضر ، وانه سلم وكالة الخليفـــة المحروة الى عميد الملك وزير السلطان فقبّلها ، وأوصلها الى السلطان فقام من مجلسه عند مشاهدتها وقبّلها وقبل الارض ودعا ، ثم أعادها الى عميد الملك فقرأها ، وانهم لما سمعوا أن الخليفة قد رسم فيها تعيين المهر بأربعمائة درهم ودينار ، ارتفعت الاصوات بالدعاء للخليفة ، وبعد الاملاك نثر

من الذهب واللؤلؤ ، وتكلم السلطان باللغـــة التركية بما معناه الشكر والدعاء ، وانه المملوك القِنّ الذي قد سلم نفسه ورقته وما حوته يداه وما يكسبه باقي عمره الى الخليفـــة ، ثم أرسل طغرل بك الى الخليفة بهدية مشتملة على ثلاثين غلاماً أتراكاً على ثلاثين فرساً ، وخادمين وفرس بمركب وسرج من ذهب مرصع بالجواهر الثمينـة ، وعشرة آلاف دينار ومثلها لكريمته المزوجة مع عقد جوهر فيه نيف وثلاثون حبة في كل حبة مثقال ، وجميع ما كان لآلتون خان المتوفاة من الاقطاع بالعراق ومنه بعقوبا ، وثلاثة آلاف دينار لوالدتها وخمسة آلاف دينار للأمير عدة الدين محمد بن القائم بأمر الله أخي السيدة ، ووردت الكتب بخبر توجه السلطان طغرل بك الى بغداد ، ثم جاءت أراجيف بموته ثم جاءت البشارة بسلامته من مرض شديد ، ولم يكن ريب في ان هـذا السلطان كان قـــد كبر وأسنّ وقارب الموت ، وكان زواجه الاسميّ بتلكم الشابة إيذاناً بوداعه للدنيا .

وكان في تلك الايام مؤرخ عراقي شبه رسمي ، هو غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابي من ذرية ابي اسحق الصابي الكاتب المشهور ، فأراد ان يسجل هذه الحادثـــة تسجيلاً رسمياً فانها وحيدة فريدة ، فتوصل الى استكتاب الخليفة برجل وجيه مقرب عنده ، فأرسل اليه القائم بامر الله على يـــد الوسيط بهذا الشرح الذي يقول فيـــه : « لما كان من فعل البساسيري اللعـــين ، وانتهازه الفرصة فيمن انضوى اليـــه من الاجناد المطرودة عن مدينة السلام ، وعود ركن الدين طغرل بك

الى بلاده وتشاغله بقتال اخيه ابراهيم اينال حين شرد عن الطاعة وفارق الجماعة ، واصغى الى اباطيل البساسيري واطماعه في الدولة والولاية ومضاره دار الخلافة ، واقتضى حكم الاستظهار انتقال الامامة الى الحديثة ، والمقام بها الى ان تستقر الامور وورد ركن الدين طغرل بك الى مدينة السلام ، وعادت الخدمة الشريفة الى مستقر سدتها ، وقتل اللعين البساسيري وحمل رأسه الى الخزانة الامامية ، واقترح ركن الدين طغرل بك الانافة به ومقابلة خدمته ، بما يبقى له فخره وجماله على الاعقاب ، ويتخلد ذكره مع الدهر والزمان ، ورغب في الخدمة بتجميله بعقد على كريمتها ، وعلم ان موضعه يقتضي كل ايجاب وترددت في ذلك اقوال اختلفت وبذل في مقابلة ذلك من الاموال والاقطاعات ما اشتمل على الف الف دينار ، سوى الاواني المرصعة والمهد المرصع والمراكب المرصعة بالجواهر الثمينة ، وأعيد جميعه ثم انساقت الحال الى ان عقد اسماً من غير اجتماع على اربعمائة درهم ودينار ، ثم يساق الشرح على ما جرى فيه ونسأل الله التوفيق في جميع الامور. هذا ما ذكره محمد بن الصابي .

وهذه الوثيقة المكتوبة قد احتوت على تسويغ الزواج واوضح فيها ان طغرل بك عرض مليون دينار لاتمام الزواج بالسيدة بنت القائم ، ولما رأى والدها ان الامر ليس بأمر مال ولا خول ، اقتصر على المهر الشرعي اربعمائة درهم ودينار ، واعاد سائر الاموال المعروضة ، قال ابو المظفر سبط بن الجوزي : « ذكر جدي ابو الفرج بن الجوزي في المنتظم ان العقد وقع على اربعمائة

الف دينار ولكن الذي ذكره ابن الصابي أليق بالقصة لان الخليفة القائم بامر الله اتبع السنة الطاهرة في اربعمائة درهم ودينار »

وسار طغرل بك من تبريز الى أرمية ، ومرض هناك فشغب عسكره فأجلس على مضض وألم ، وادخل اليه قوادهم ووجوههم ، فاوصاهم بوصية يعملون بها ان نزل به حادث ، ثم شفي ونحا نحو بغداد ، ثم وصل الى تكريت واستدعى بسفن لينزل فيها الى بغداد ، وسار في دجلة حتى وصل قبالة قرية القفص ، وكانت شمال بغداد قريبة منها ، فعزم الخليفة القائم بامر الله على تلقيه واستقباله هناك ، فاستعظم ذلك طغرل بك وابى ان يكلف الخليفة مثل ذلك التكليف ، واستقبله الوزير ابو نصر محمد بن جهير التغلبي ، ثم دخل السلطان بغداد ودخلت عساكره فنزلوا في دور الناس بعد أن اخرجوهم منها ، وكان في تلك الايام برد شديد فكانوا يوقدون من خشب الدور المستعمل في البناء ، ويتعرضون لحرم الناس حتى ان قوماً من الاتراك صعدوا الى جامات حمام نسوي ، بنهر القراطيس وآخر بنهر طابق من الجانب الغربي ببغداد ، ففتحوها واطلعوا على النساء ، ثم نزلوا فهجموا عليهن فاخذوا منهن من ارادوا وخرجت الباقيات عاريات الى الطريق فاجتمع الناس وخلصوهن من ايديهم ، وقطع الجند الطرقات واخذوا عمائم الناس ، وطغرل بك سلطانهم حامي الخلافة والامامة مقيم في دار المملكة لا يبدي ولا يعيد ، ثم ارسل وزيره عميد الملك الكندري الى الخليفة يطالبه بالسيدة ، ويطلب نقلها من دار الخلافة الى دار المملكة ، وبعث اليها مع الوزير بخاتمه وكان ذهباً وعليه فص

ماس وزنه درهمان ، وبات الوزير في ديوان الخلافة مطالباً بنقل السيدة ، فقال الخليفة : « انك يا منصور بن محمد كنت تذكر ان الغرض من هذه الوصلة التشرف بها ، والذكر الجميل لركن الدين طغرل بك فيها » ، وكنا نقول لك : اننا ما نمتنع من ذلك إلا خوفاً من المطالبة بالتسليم ، وجرى ما قد علمته ، ثم أخرجنا ابن المحلبان وقرر معكم قبل العقد ما اخذ به خطك ، وانه ان كان يوماً يطالب برؤية السيدة كان ذلك في دار الخلافة ، ولم نسم اخراج الجهة منها ، اراد بالجهة « السيدة بنته » فقال عميد الملك « هذا كله صحيح ، والسلطان مقيم عليه وعازم على الانتقال من دار المملكة ، الى هذه الدار العزيزة حسبما استقر ، وهو يسأل أن يفرد فيها لحجابه وغلمانه وخواصه ، مواضع يسكنونها فما يمكنه بعدهم عنه » .

فقطع بهذا الكلام الحجة ، ثم راجع وكرر المراجعة حتى أجاب والدها الى نقلها الى دار المملكة ، فزفت الى طغرل بك في منتصف شهر صفر من سنة ٤٥٥ مصعدة في دجلة ، وكانوا قد نصبوا لها من مشرعة دار المملكة على الشط قرب العيواضية الى الدار نفسها سرادق تسير فيه ، وضربت البوقات والطبول العظيمة عند دخولها الدار ، فجلست على سرير ملبس بالذهب ، ودخل السلطان طغرل بك حجرتها فقبل الارض بين يديها وخدمها ، ودعا لأبيها الخليفة ثم خرج من غير ان يجلس .

أما السيدة فلم تقم له ولا كشفت البرقع عن وجهها ، ولا رأت وجهه لحسن حظها . وظل السلطان والحواشي في صحن

دار المملكة يرقصون ويغنون باللغة التركية فرحاً وسروراً ، ولقد كان رقص السلطان طغرل بك من عجائب الزمان ومما يندر ان يمليه الملوان ، ثم انفذ للسيدة مع ارسلان خاتون بشيء كثير من الجواهر ، منها عقدان فاخران ونسيج خسرواني ذهب ، وقطعة ياقوت حمراء كبيرة ، ودخل اليها من الغد فقبل الارض ايضاً وخدمها ، وجلس قبالتها ساعة على سرير ملبس بالفضة ، ثم خرج وأنفذ اليها بجواهر اخرى مثمنة ، وفرجية مكللة بحب اللؤلؤ ومخنقة منسوجة بحب اللؤلؤ ، وما زال كل يوم يفعل ذلك ويخدمها ويقبل الارض ويبعث بالتحف ، وظهر عليه سرور عظيم ، ومن الخليفة تألم جسيم . وخلع على وزيره عميد الملك وزاد في القابه لحصول المصاهرة بسفارته ، وبقيت الولائم في دار المملكة اسبوعاً كاملاً ، ولتسع بقين من شهر صفر المذكور مد سماط كبير وخلع على جميع الامراء الذين جاؤوا بغداد مع السلطان طغرل بك ليشهدوا هذا الزواج المضحك للعقلاء .

وفي شهر ربيع الاول حضر الوزير عميد الملك بيت النوبة بدار الخلافة ، واستأذن للسلطان طغرل بك في السفر من بغداد والانصراف الى بلاد ايران ، فأذن له الخليفة ، فاستصحب السيدة العباسية معه بعد ان امتنعت وأبت إباءً شديداً ، فغلظ السلطان عليها والزمها المسير معه ، ولم يتبعها من دار الخلافة سوى ثلاث نسوة برسم خدمتها ، ولحق بوالدتها من الحزن ما لم يمكن دفعه عنها ، ولحق والدها الخليفة امر عظيم وظهر الحزن عليه ، وكان فعل السلطان لذلك باشارة وزيره عميد الملك .

وخرج طغرل بك من بغداد في يوم الاحد الثاني عشر من ربيع الاول ، وكان مريضاً مأيوساً من سلامته ، فوصل الى الريّ وتوفي فيها في ثامن شهر رمضان من السنة التي تزوج فيهـا ، ذلك الزواج الاسمي ، ووصل نعيه الى بغداد ليلة الاحد الرابع والعشرين من الشهر ، اي بعد ستة عشر يوماً وكان له من العمر سبعون سنة تقريباً وقيل ثمانون ، وكان بين زفاف السيدة بنت القائم اليه ووفاته ستة اشهر وثلاثة وعشرون يوماً . وجلس وزير الخليفة في صحن السلام بدار الخلافة للعزاء بالسلطا ن ، وقطعت خطبته من منابر بغداد بحكم موته .

واضطربت الدولة السلجوقية بعد موت طغرل بك ، وكثر المطالبون بالسلطنة على اختلاف اجيالهم . وفي الريّ اضطربت احوال الجنود ، وطالب الوزير عميد الملك السيدة بنت القائم ، بجواهر كانت للسلطان معها ، وذكر زيادة قيمتها ونفاستها ، وحاجته الى انفاقها على الغلمان من جنود السلطـان ، فانكرت السيدة ذلك ، فاستولى على اقطاعها ونواحيها ، ثم استظهر عليها واخذ منها ما اخذ ، وكان يريد ان يولي بعد طغرل بك ابن اخيه ابا القاسم سليمان الملقب بمشيد الدولة ، فـلم يتم له الامر وتولى السلطنة ألب ارسلان محمد بن داود ، وهو ابن اخي طغرل بك ايضاً واخو الطالب للسلطنة المذكور ، واعتقل وزير عمه عميد الملك الكندري لان وزيره نظام الملك ابا علي الحسن واسحاق الطوسي حرضه عليه وقال انه لا يؤمن شره ، ثم ارسل السلطان ألب ارسلان السيدة بنت القائم في الحال ، واذن لها في الرجوع

الى بغداد ، وأنفذ اليها بخمسة آلاف دينار للنفقة ، فأبت ان تقبلها ، فقيل لها : لا يجوز رد مثل ذلك فقبلت ، وخرجت من وقتهـــا الى دار المرتضى نقيب العلويين بالري ، ثم سارت من عنده الى بلدة سامرا وفي خدمتها جماعة من الأعيان ، منهم رسول السلطان ألب ارسلان فقد جاء يطلب الى الخليفة اقامة الدعوة والسلطنة لصاحبه ، ووصلت السيدة الى بغداد عشية يوم الاحد ثالث عشر ربيع الآخر ، وخرجت لاستقبالها والدتها وخـدم دار الخلافـة والقهرمانة صلف ، واجتمع الناس لمشاهدتها فدخلت ليـلًا وسر أبوها القائم بدخولها وعودتها ، وبقيت هذه السيدة المتزوجــة العذراء في دار الخلافة ، فخفت اخبارها واحوالها .

وفي سنة ٤٦٧ توفي والدها القائم بامر الله وهي في الحيـــاة وتولى الخلافة ابن اخيها عبد الله ولقب بالمقتدي بأمر الله ، وعاشت طوال خلافته حتى توفي سنة ٤٨٧ ، وولي الخلافة بعده أبنـه المستظهر بالله ، وفي عهد هذا الخليفة ظهر للسيدة بنت القائم تدخل في السياسة ونسب اليها انها تسعى في إزالة دولتـه ، فألزمهـا الاقامة في دارها ومنعها من الخروج حتى وفاتها عذراء لم تمس في سادس المحرم من سنة ٤٩٧ ، وحملت جنازتها في زبزب من دار الخلافة الى الرصافة جنوبي الاعظمية الحالية ، وجلس ارباب الدولة العباسية في بيت النوبة للعزاء بها ، وكانت موصوفة بالدين وكثرة الصدقات ، وقد ادركت ثلاثة خلفاء ابيها القائم بأمر الله وابن اخيها المقتدي بأمر الله ، وحفيد اخيهـا المستظهر بالله وفي عهده توفيت وأدركت من سلاطين بني سلجوق ثمانية ، زوجهـا

الاسميّ طغرل بك وألب أرسلان ابن اخيه داود وملكشاه بن ألب أرسلان وتتش بن ألب ارسلان ومحمود بن ملكشاه وبركيارق بن ملكشاه ومحمد بن ملكشاه وسنجر بن ملكشاه. وماتت بعد ان ضحي بشبابها بل بحياتها من اجل زواج اسمي اراده طغرل بك ودل على حماقتة وقسوته معاً. قال ابن الاثير عز الدين « وهذا لم يجر للخلفاء مثله فان بني بويه مع تحكمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله ».

وكان للوزير عميد الملك منصور بن محمد الكندري أثر سيء في هذه الحادثة النادرة، وفي إخراج السيدة من دار الخلافة وتسييرها مع السلطان طغرل بك إلى الريّ. ولما اعتقل عميد الملك أرسل الوزير نظام الملك إلى السيدة المذكورة يعلمها أنه دبر في اعتقال عميد الملك، لما فعله في حقها وسببه من نقلها خارج دار ابيها وبلاده خلافاً للشروط، وآل أمر عميد الملك إلى ان حرض نظام الملك عليه السلطان ألب أرسلان فأمر بقتله فقتل يوم الاحد سادس عشر ذي الحجة في سنة ٤٥٦، ومثل به أفظع تمثيل. ولا نشك في أن نظام الملك اتخذ إساءة عميد الملك إلى الخلافة العباسية ذريعة الى القضاء عليه وإزالة مزاحم له في مرتبة الوزارة، معروف بالكفاية والدراية والسياسة والرئاسة، وان كان جريئاً على الخلافة العباسية في خدمة سلطانه الغاشم.

ونختم الكلام على السيدة بنت القائم بأمر الله بان المؤرخين المعاصرين والمنتحلين لكتابة التاريخ، ظنوا بل عدوا هذا الزواج زواج طغرل بك بالسيدة العباسية حقيقياً، ولم يكن في الحقيقة

كذلك ، بل كان زواجاً اسمياً صورياً ، وعلى نحوه جرى زواج السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله ، زوجـة السلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه العجوز ، وكلتاهما ماتت عذراء ، ومن الخطأ المبين ما قرأه الناس في بعض الروايات العصرية من أن طغرل بك أراد بزواجه بابنة الخليفة القائم بأمر الله ان تنقل الخلافة الى ابنه بعد وفاة القائم بأمر الله ، فهذا من الهراء والتخليط ، لما ذكرنا من الاسباب والاخبار ، فنظام وراثة الخلافة لم يخرج عن قول الشاعر :

بنونا بنوا أبنائنا وبناتنا   بنوهنّ ابناء الرجال الاباعد

هذا الى ان الدلائل دلت على كون طغرل بك عقيماً لم يولد له ولد على تعدّد زوجاته ، وورث السلطنة بعده ابن اخيه ألب ارسلان كما هو معلوم وقد أومأنا اليه فيما أسلفنا من الحديث .
هذا ما وجدناه من سيرة المتزوجة العذراء السيدة بنت القائم بأمر الله العباسي ، وهي سيرة مشتملة على حوادث غريبة وعظات وعبر ، استبان فيها ما لقيه خليفة بني العباس من جور بني سلجوق واضطهادهم ، وطلبهم منه ما لم تسمُ اليه نفس ملك ولا سلطان قبلهم ، واتضح فيه لون الحكم الذي كانوا يحكمون به البلاد ، وسيرة جنودهم القبيحة بين العباد ولا سيما أهل بغداد ، فانهم كانوا يخرجون الناس من مساكنهم ولو في أشد الاوقات برداً ويغتصبونها ويسكنونها ، ويتعرضون للناس وحُرمهم حتى في الحمّامات ، وانكشفت بها سيرة سلطانهم طغرل بك وما كان عليه من قلة المبالاة بأمور الرعايا ، والتقصير في تأديب الجنود ، وتعلقه

بالامور التافهة وتركه مكارم الامور ، ومحاسن التدبير ، وتنكبه عن جادة السياسة الحكيمة .

والعبرة الاجتماعية من ذلك الزواج الغريب ، هي ما آل اليه من تضاؤل الصداق من أربعمائة الف دينار الى اربعمائة درهم ودينار ، وذلك بانحطاط كل مائة الف دينار الى درهم واحد وتبقى عشرة دراهم وهي الصرف الشرعي للدينار ، فعلى هذا كان المهر اربعمائة درهم متداولة وعشرة دراهم شرعية . والناس حريون باتباع هذا الفعال وسلوك هذه السبيل من حط المهر الى ذلكم المقدار الضئيل ، تشجيعاً على الزواج فان قوامه التحابُّ والتراضي وتوسم السعادة وترسم طريقها ، لا كثرة المهر واظهار أدوات الفخر ولا استكثار من النثار والاثاث ، فان ذلك كله زائل أوكالفاني اذا لم يكن توادٌ وتخالص وتصافي ، فليس الزواج بتجارة عند ذوي البصائر ولا حرفة عند أولي العقول الراجحة بل هو الجمع بين جسمي روحين متحدتين في الهوى والمشرب وان كانتا مفترقتين ، ثم التقتا بالزواج لقاءً دائماً .

السيدة قرة العين ارجوان

السيدة قرة العين ارجوان ام الخليفة المقتدي بأمر الله ، والارجوان في الاصل صبغ احمر شديد الحمرة ونوع من الشجر له ازهار حمر احسن ما تكون من حيث الجمال ، وكل لون يشبهها فهو ارجوان . والظاهر ان السيدة ارجوان سميت باسم ذلكم الزهر الجميل او بالياقوت الارجواني وهو الشديد الحمرة .

كانت هذه السيدة جارية أرمنية ادخلها الرق قصر الخليفة القائم بأمر الله العباسي ببغداد ، فان هذا الامام اشتراها لابنه الوحيد ذخيرة الدين أبي العباس محمد ولي عهد الخلافة الوارث المنتظر للامامة . وفي سنة ٤٤٧ هـ مرض ذخيرة الدين وتوفي وله من العمر سبع عشرة سنة . فعظمت الرزية بوفاته وتفاقمت المصيبة ، لانه كان الولد الذكر الأوحد للقائم بأمر الله ولم يبق للخلافة ولي عهد ، واستشعر الناس بانتقاص الدولة العباسية وانفصام امرها وانقطاع نظامها ، اما سائر العباسيين من غير البيت الذي فيه الخلافة فقد كانوا خالطوا العامة وتزوجوا فيهم وجروا مجرى السوقة بينهم ، فلم يكن ممكناً استخلاف احد منهم لان العرب ما داموا عرباً يشترطون السيادة والشرف في ملوكهم وخلفائهم .

ثم علم أن السيدة قرة العين ارجوان حبلى من ولي العهد فتشوقت النفوس ما يكون من ذلك وتشوقت الى معرفة ما

ستلده من ذكر او انثى ، فولدت بعد ذلك بخمسة اشهر ولداً ذكراً فسموه عبـد الله وكنوه بابي القاسم ، وهو الذي صار خليفة بعد وفاة جده القائم بأمر الله وتلقب بالمقتدي بأمر الله ، وسيرته حسنة مشهورة عند مؤرخي العراق وكانت هذه الولادة التي هيأها الله تعالى لقرة العين ارجوان سبباً لتعظيمها وتكريمها وعدها من النساء المباركات ، فيها حفظ بيت الخلفاء العباسيين وبها دامت الخلافة بعدما اوشكت ان تنبت وكان يوم الولادة من أيام السرور والاعياد ببغداد وسارت فيه البشائر الى البلاد الاسلامية ولقب المولود المبارك الجديد بعدة الدين .

وفي سنة ٤٥٠ استولى على بغداد ابو الحارث ارسلان البساسيري القائد التركي المشهور وخطب فيها للخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، واصبح العراق من ممالك الدولة الفاطمية ونفي القـائم بامر الله العباسي الى بلدة حديثة (عانة) واستترت والدة الخليفة قطر الندى وكانت ارمنية ايضاً ، وقرة العين ارجوان وذهب ابنها عـدة الدين مع عمته وجدته في غمار الناس ببغداد ، وكان عمر عدة الدين دون اربع سنوات ، وظلوا يبيتون في المساجد وينتقلون من مسجد الى آخر مع المكدين والشحاذين ، والقائد ارسلان البساسيري قد اذكى عليهم العيون والمتجسسين ببغداد فـلم يظفر بهم ، ولم يكونوا يشبعون من الخـبز ولا يدفأون من البرد ، ثم اتصلوا سراً باحـد اولياء الخلافة العباسية يعرف بابن المحلبان فخرج بهم من بغـداد الى نواحي سنجار ثم حملهم الى حرّان من بلاد الجزيرة .

اما ارجوان قرة العين وقطر الندى فقد ظهر على امرهما ارسلان البساسيري لان الثانية - أعني قطر الندى - كتبت اليه من مكان استتارها ببغداد رقعة تشكو فيها الضر اليه وتشرح ما لحقها من الاذى والفقر حتى ان القوت يتعذر عليها وكانت قد ناهزت التسعين واحدودبت . فافرد لهـا القائد الفاتح داراً في الحريم الطاهري ، وكان الحريم الطاهري على دجلة فوق المنطقة بين الكاظمية وبغـداد . ورتب لها جاريتين تخدمانهـا واجرى لها راتباً من الخبز واللحم ، وبقيت في حكمه هي والسيدة ارجوان كالأسيرتين ، فلما هرب من بغداد وانحدر الى واسط حملها معه كالرهائن ، ثم عاد السلطان طغرل بك الى العراق وقاتل ارسلان البساسيري فقتله ثم اعاد من واسط الى بغداد في ذي الحجة من سنة ٤٥١ والدة الخليفة ومعها ارجوان ووصال قهرمانة الخلافة . هذا ما جرى على السيدة ارجوان من مصائب الزمان وطوارق الحدثان . فقد كانت هاربة مطلوبة مروعة معوزة محواجاً قد فارقت طفلها وضيعت فلذة كبدها ثم ردها الله تعالى الى مقر عزها ومحط كرامتها ومقام نعيمها ، الا انها بقيت متشوقـة الى اخبار عزيزها عدة الدين الذي كتب الله له ان يكون خليفـة للمسلمين واميراً للمؤمنين . وفي يوم الثلاثاء تاسع جمادى الآخرة ورد بغداد الامير عدة الدين ابو القاسم مع جدته وعمته في رعاية المحلبان المذكور ، وخرج الناس لاستقبالهم وكان دخوله في زبزب كبير في دجلة ، فلما بلغ الزبزب مشرعة باب الغربة اي شريعـة شارع السموءل الحالية ، قدم لعدة الدين فرس فحمله ابن المحلبان على كتفه

واركبه الفرس ودخل به دار الخلافة وسلمه الى جده الخليفة القائم بامر الله ، فشكره الخليفة وقرت عين ارجوان بأوبة وليدها وثابت اليها طمأنينتها وتمت سعادتها وغبرت طوال خلافة ابنها من سنة ٤٦٧ الى سنة ٤٨٧ وبقيت في الحياة بعده فادركت خلافة حفيدها المستظهر بالله وخلافة ابنـــه المسترشد بالله ورأت البطن الرابع من اولادهـــا وتوفيت في سنة ٥١٢ . وهي اول سنة من خلافة المسترشد المذكور ودفنت في دار الخلافة ثم نقلت في السنة نفسها الى مقبرة الخلفاء العباسيين ، بالرصافة ، على مقربة من قبر الامام ابي حنيفة كما ذكرنا غير مرة . وكانت هذه السيدة كثيرة البر والمعروف ذكرها ابن الساعي في كتاب « من ادركت خلافة ولدها » وحجت بيت الله الحرام ثلاث مرات ، والظاهر لنا انها كانت من السابقات الى اقامة الآثار الدينية ، وان من جئن بعدها من سيدات البلاط العباسي قلدنها في ذلك ، فاننا الدارسين لخطط بغداد العتيقة نجد اسم السيدة « رباط ارجوان » المشيد ببغداد يتردد كثيراً في تاريخ هذه المدينة ، يتردد مع اسم درب كان لرباط فيه اسمه « درب زاخي » وهو اسم سرياني نبطي من اسماء الانباط الذين كان لهم اتصال بضياع ارض بغداد الشرقية الحالية قبل ان تبنى وتمدّن ؛ فمن ذلك ما ورد في ترجمة ابي الازهر محمد بن محمد بن حمود المقري الصوفي . كان هـذا من اهـل واسط وتعلم بها قراءة القرآن المجيد بالروايات ثم قدم بغـداد واقام في رباط السيدة ارجوان والدة الخليفة المذكورة بدرب زاخي وبقي فيه مقيماً الى ان توفي سنة ٥٧١هـ . ومن ذلك ما ورد في ترجمة

ابي شجاع محمد بن منجح ابن عبدالله الواعظ الصوفي تفقه ببغداد على مذهب الشافعي ثم درس بالجزيرة واتقن الفقه وعلم الخلاف ثم خرج الى بلاد الشام وتولى القضاء ببعلبك واقام بها مدة ثم عاد الى بغداد وسكن الرباط الارجواني بدرب زاخي على قدم التصوف ، وكان يفتي ويحدث ويعظ وله شعر حسن منه :

سلام على وادي الغضا ما تناوحت على ضفتيه شمأل وجنوب
احمل انفاس الخزامي تحية اذا آن منها بالعشي هبوب
لعمري لئن شطت بنا غربة النوى وحالت صروف دوننا وخطوب
وبددنا ريب الزمان وخيلت أياس تلاقيكم الى شعوب
فما كل رمل جئته رمل عالج وما كل ماء عمت فيه شروب
رعى الله هذا الدهر كل محاسني لديه وان اكثرتهن ذنوب

ومن شعره قوله :

عذيري من زمن كلما شددت عرى املي حلها
عرائس فكري قد عنست لاني عدمت لها اهلها
ونفسي تنهل من مورد ترى الموت في الورد اذعلها
عليها من الدهر اثقاله ولا يغلط الدهر يوماً لها

توفي ابن المنجح في سنة ٥٨١ وصلي عليه برباط الشيخ ابي النجيب السهروردي الذي قبره فيه ، وهو قبالة دار الضباط الحالية على التحقيق . ولعمري لئن لم يقرن اسم هذا الرباط في التاريخ إلا الى اسم هذا الفقيه الفاضل الشاعر الواعظ ليستحقن التمجيد وتخليد التاريخ ، فكيف وقد كان مباءة للفضلاء ومن شيوخه اي الذين اداروا اموره – كما يقال اليوم – كريم الدين ابو منصور

الحسين بن محمد بن ابراهيم الكاتب كان شيخاً لطيفاً محباً للعلم فاضلاً كتب بخطه كثيراً من الكتب . وتوفي في سنة ٥٩٦ ه .
ومنهم ابو منصور الحسين بن علي بن محمد المعروف بابن الكريم الصوفي وهو والد محمد بن الكريم مؤلف كتاب الطبيخ احد الكتب المهمة في الثقافة العربية ، وقد توفي سنة ٥٩٦ وتولى بعده الرباط المذكور الشيخ عفيف الدين اسفنديار بن الموفق البوشجي المنشىء المحدث الواعظ الخطاط الشاعر ، وقد تولى كتابة ديوان الانشاء للدولة العباسية ببغداد في المحرم من سنة ٥٨٤ وصرف عنها في السنة نفسها ومن شعره :

وقد كنت مغري بالزمان واهله ... ولم ادر ان الدهر بالغدر دائل
ارى كل من طارحته الود صاحباً ... ولكنه مع دولة الدهر مائل
ورب اناس اكتب الحظ ودهم ... وما نالني منهم سوى المذق نائل
تعاطوا ولائي ثم حالوا سآمة ... وحال بني الايام لا شك حائل
واعظم شيء سامه المرء دهره ... حبيب مصاف او خليل مواصل
أسادتنا قد كنت احظى بوصلكم ... واجني ثمار العيش والدهر غافل
وما خلت ان البين يصدع شملكم ... ولا أنني عنكم مدى الدهر راحل
وتالله مـا فارقتكم عن ملالة ... ولكن نبت بي في المقام المنازل
قطعت الفـلا عنهن حين اضعنني ... فاقفرن عن مثـلي وهنّ اواهل
واني اذا لم يعل جدي ببـلدة ... هداني الى اخرى السرى والعوامل
سيعلم قومي قدر من بان عنهم ... وتذكرني ان عشت تلك المعاقل

ومن شعره :

كل له غرض يسعى ليدركه ... والحر يجعل ادراك العلى غرضه

يـــين امواله صوناً لسؤدده ولم يصن عرضه من لم يهن غرضه

ومنه :

الدهر بحر والزمان ساحل والناس ركب راحل ونازل

كأنهم سيارة في مهمـه مــكاره الدهر لهم منازل

وقد توفي اسفنديار سنة ٦٢٥ في خلافة المستنصر بالله ودفن في مشهد عبيد الله العلوي المعروف بأبي رابعة شرقي الاعظمية .

هذا مختصر ترجمة السيدة قرة العين ارجوان وهذا بعض اخبار الرباط الارجواني ولئن استرسلنا في تاريخ هذا الرباط لنخرجن كتاباً مستقـلا فيه من الادب والشعر والتراجم ما تمثلنا ببعضه . وهذه ناحية من نواحي الادب العربي مجهولة كعدة نواح اخرى بقيت كالروضة الانف تحتاج الى استقصاء واستقراء وتبحث وتفحص ولا سيما الادب العراقي فانه لا يزال مغموراً مطموراً وما فتيء حظه من البحث منزوراً فعسى ان يكون له بعث ودراسة .

السيدة بنت ملكشاه السلجوقية

زوجة الخليفة المقتدي بأمر الله

هي احدى الخواتين السلجوقيات بنت جلال الدولة ملكشاه ابن الب أرسلان السلجوقي ، اشهر الملوك من بني سلجوق ، وزوجة الخليفة عبد الله المقتدي بامر الله العباسي ، وقد اشتهرت بلقب « خاتون » ولم يشتهر اسمها ، وهذا الامر من غرائب التاريخ الاسلامي ، والا فكيف يجهل المؤرخون المعروفون اسم سيدة لهج بذكرها التاريخ ، وكانت من كبيرات السيدات في العالم فضلاً عن الممالك الاسلامية ، والدول الشرقية .

كان الخليفة المقتدي لأمر الله معاصراً لملكشاه السلجوقي ، وكانت أمور العراق وغيره من البلاد الاسلامية موكولة الى السلطان المذكور ، وأتباعه كنظام الملك الوزير الشهير ، ويخطب له على منابرها بعد الخليفة المقتدي .

وفي السنة السابعة من خلافة المقتدي ، أي سنة ٤٧٤ ﻫ خرج الوزير فخر الدولة ابو نصر محمد بن جهير وزيره من بغداد ، قاصداً اصفهان ليخطب الى السلطان ملكشاه ابنته على الخليفة المقتدي بامر الله ، وكان معه هدايا وألطاف تساوي عشرين الف دينار على التقريب ، فلما وصل الى اصبهان خرج نظام الملك الطوسي والأمراء فاستقبلوه ، وبعد ان أقام فخر الدولة ابن جهير

شهراً باصبهان ، كلم نظام الملك في خطبة ابنـــة السلطان على الخليفة ، فقال له نظام الملك ، « ما استقر في هذا شيء فان رأيتم ان تجربوا الطلب من تركان خاتون والدة الصبية » .

وكأن نظام الملك أراد ان لا يدخل نفسه في القضية ، فأمره السلطان ملكشاه ان يمضي مع وزير الخليفة الى زوجته تركان خاتون ، ليخاطباها في زواج ابنتها ، فذهبا معاً الى أم البنت فقال لها وزير الخليفة : « ان امير المؤمنين راغب فى ابنتك » ، فقالت له : « قد رغب اليّ في هذا ملك غزنة وملوك الخانية بما وراء النهر ، وطلبوها وخطبوها لأبنائهم ، وبذل كل واحد منهم اربعمائة الف دينار ، فان اعطاني امير المؤمنين هذا القدر من المال فهو أحق بها منهم ، وزواجه أحب إلي » فقال لها الوزير : « رغبة امير المؤمنين لا تقابل بهذا » ، وكانت أرسلان خاتون زوجة القائم بامر الله التي تحدثنا بسيرتها في فصل سابق ، حاضرة عندها فعرفتها ما يحصل لها من الشرف والفخر في تزويجها ابنتها بالخليفة ، وقالت لها : « ان هؤلاء كلهم عبيد الخليفة وخدمه ومثل الخليفة لا يطلب منه المال » .

وجرت في ذلك مراجعات ، انتهت بقبول الطلب ، بشرط ان يعجل وزير الخليفة المقتدي بامر الله خمسين الف دينار عن حق الرضاع ، وكان هـذا من عادة الاتراك إذ ذاك عند الزواج ، وان يكون المهر أي الصداق مائة الف دينار ، فقال لها الوزير : « ما في صحبتنا مال معجل الا أننا نستطيع ان نحصّل ها هنـا عشرة آلاف دينار ، ثم نبعث من بغداد بأربعين الف دينار » ،

فوقع الرضا بين الطرفين وشرع الوزير في تحصيل عشرة الآلاف التي وعد بها فلم يستطع ذلك ، وعلم السلطان ملكشاه بعجز الوزير عن أداء المبلغ فأمر بتأخيره وتأجيله ، وان يرسل بالمبلغ كله من بغداد .

واشترطت تركان خاتون أم البنت ايضاً على الخليفة ، ان يرسل الى اصبهان امه وعمته ومن يجري مجراهما من اهل بيته ، والمحتشمين من اهل دولته ، وتستقدم هي خواتين غزنة وسمرقند وخراسان ووجوه البلاد ، ويكون العقد بحضر هؤلاء جميعاً . واشترطت فوق ذلك ان لا تبقى في دار الخلافة سرّية ولا حظية ولا قهرمانة ، وان يكون مبيته عند ابنتها فقط . فاجابها الوزير الى ذلك كله ، واخذ يد السلطان على ذلك نيابة عن زوجته ، وعاد الى بغداد وورد التبشير يوم الثلاثاء حادي عشر صفر من سنة ٤٧٥ هـ ، فكان يوم سرور وحبور

وفي سنة ٤٨٠ اي بعد الخطبة بخمس سنوات ، دخلت بغداد بنت السلطان ملكشاه مع امها تركان خاتون ونزلتا دار المملكة ، وكان السلطان ملكشاه ببغداد ايضاً بعد فتحه مدينة حلب وغيرها من بلاد الشام والجزيرة ، وفي المحرم من تلك السنة نقل جهاز الخطيبة من دار المملكة في المخرّم اي اراضي العيواضية الحالية ، الى دار الخلافة العباسية ، وكان على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي ، وفي ذلك مقادير عظيمة من اشياء الذهب والفضة ، وعلى اربعة وسبعين بغلاً مجللة بالديباج الملكي واجراسها وقلائدها من الذهب والفضة ، وكان على ستة

بغال منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدر ما فيها من الجواهر والحليّ ، وكان في الجهـاز ثلاث عمّاريات اي كجاوات ، وكان الخدم ونحو ثلاثة آلاف فارس يسيرون امام الجهاز والبوقات والطبول تضرب . ومع الموكب ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيـل الرائعة عليها سروج الذهب المرصعة بانواع الجوهر ، ومهد عظيم كثير الذهب ، وسار بين يدي الجهاز الامير سعد الدولة كوهرائين والامير برسق ، وكانا من اعاظم امراء الدولة السلجوقية .

ولما وصل الجهاز محلة نهر المعلّى أي محل شارع المأمون وما حوله من محلة باب الآغا ، نثر الناس على السائرين في موكبه دنانير وثياباً اعلاناً منهم بالفرح والسرور . وكان الناس قـد أمروا - على عادة ذلك الزمان - بتعليق اسباب الفرح وتزيـين بغداد ، استعداداً لزفاف ابنة السلطان ملكشاه الى الخليفة المقتدي .

وبعد وصول الجهاز بخمسة ايام ارسل الخليفة وزيره - وكان يومذاك ظهيرالدين ابو شجاع محمد قدوة الوزراء ، الى تركان خاتون عشية الجمعة سلخ المحرم من السنة المذكورة ، وكان بين يديه نحو ثلاثمائة شمعة موكبية ، ومثلها مشاعل من النفط ، والشمعة الموكبية كبيرة جداً ، ويسميها بعض المؤرخين باسطوانة الشمع اي شمعة مثل الدلك ، ولم يبق دكان في حريم دار الخلافة اي محلات النصارى ومحلة الرواق وسوق العطارين الحالية ، الا وقد اشعل فيها شمعة او شمعتان او اكثر من ذلك ، وكان مع الوزير ، المملوك ظفر مملوك الخليفة ، ومعه محفة وهي كالتختروان ، لم يرَ الناس مثلها .

فلما وصل الوزير الى دار المملكة قال لتركان خاتون أم البنت :

سيدنا ومولانا امير المؤمنين يقول : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ، وقد اذن في نقل الوديعة الى داره العزيزة » فقالت : « السمع والطاعة للمراسم الشريفة » . وحضر وزير السلطان نظام الملك ومن دونه من ارباب الدولة السلجوقية كابي سعد المستوفي والامراء ، ومع كل منهم شموع ومشاعل ، وحضرت نساء الامراء الكبار ومن دونهن كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجملها ، وتزايينها وتحاسينها ، وبين أيديهن الشمعات الموكبيات والمشاعل ، يحملها الفرسان علـى خيلهم ، ثم جاءت في آخر هـذا الموكب الفخم المنير الكبير الخاتون ابنة السلطان ، في محفّة مجللة عليها كثير من الذهب والجواهر مرصعاً فيها ، وقـد أحاطت بهـا مائتا جارية تركيات عـلى الخيل المطهّمة ، وسار موكب العرس والعروس مـن دار المملكة في ارض العيواضية الحالية الى دار الخلافة تحت شارع السموءل ، وأدخلت على الخليفة المقتدي بامر الله ، وكانت تلك الليلة مـن الليالي البديعة الجميلة في تاريخ بغداد ، وفي تلك الليلة خرج السلطان ملكشاه والد الخاتون ، الى الصيد خارج بغداد ، على عادة الملوك إذ ذاك يوم تزويج بناتهم ، وفي صباح تلك الليلة صنع الخليفة المقتدي لأمراء السلطان وعسكره وليمة عظيمة ، استعمل فيها اربعون الف مَن من السكر ، وقيمة ذلك السكر وحده ثمانية آلاف دينار ، وخلع على الأمراء والكبراء وأرسل الى تركان خاتون أم زوجته بخلع عظيمة ، وإلى جميع الخواتين على حسب أقدارهن .

وعاد السلطان ملكشاه بعد الصيد الى بغداد ، ودخل محلات

نهر المعلى وشاهد التعاليق المعلقة للفرح بزواج ابنته ، ونثرت عليه مقادير كبيرة من الدنانير ، ثم رتب لابنته زوجة الخليفة ديواناً ووزيراً يعرف بعز الملك وكاتباً يسمى ابا الحسن بن حكار ، وبعد ذلك خرج من بغداد قاصداً الى اصفهان .

ومن سمع اخبار هذا الزواج العظيم وانباء هذا التخرق في الانفاق ، والتجمل الكثير في أثاث الجهاز ، ظن ان ذلك هو السعادة والرفاهة والهناءة بأعيانها ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فان هذه الخاتون ولدت في شهر ذي القعدة من سنة « ٤٨٠ » اي سنة زواجها ، ولداً ذكراً فسماه ابوه الخليفة المقتدي « جعفراً » وكناه بأبي الفضل ، وزينت بغداد لأجل ذلك ، وكان حب المقتدي لها انتقل الى ابنها وصار الحب الزوجي حباً بنوياً ، وهذا مما لا تصبر عليه النساء ، فانهن يردن من أزواجهن حباً مزدوجاً لهن ولأولادهن معاً .

واخذت الخاتون تشكو زوجها الخليفـــة الى امها وابيها ، وتذكر لهما انه كثير الاطراح لها والاعراض عنها ، واكثرت في ذلك فبعث السلطان ملكشاه الى بغداد سنة ٤٨٢ رسولين هما بزان وصواب ليطلبا الى الخليفة الاذن في سفر الخاتون الى اصفهان عاصمة الدولة السلجوقية فاذن الخليفة في ذلك بعد التلكؤ ، فخرجت من بغداد وكان ذلك بعد سنتين من زواجها ، واخذت معها ابنها الامير ابا الفضل جعفر ابن المقتدي بأمر الله ، وخرج لتشييعها سائر ارباب الدولة ، وشيعها الوزير ابو شجاع المذكور الى بلدة النهروان تحت بعقوبا ، وكان يسير بين يدي محفة الامير ابي الفضل ، هو والأمير سعد الدولة كوهرائين وخدم

دار الخلافة وسار معها الى اصفهان النقيبان، نقيب بني العباس ونقيب آل ابي طالب، فوصلت الى المدينة المذكورة وبقيت فيها الى ذي القعدة من السنة المذكورة، فجدرت هناك وتوفيت بالجدري ووصل نعيها الى بغداد فجلس الوزير للعزاء سبعة ايام، واكثر الشعراء من الرثاء لها ببغداد. وكانت هذه الحادثة الأليمة مما اوهى الاتصال بين الخليفة المقتدي، والسلطان ملكشاه، حتى عزم السلطان على تشعيث امر المقتدي، واخراجه من بغداد الى حيث يشاء، فحال الموت دون انفاذ امره فانه - اعني السلطان ملكشاه توفي سنة ٤٨٥ هـ ودفن في مقبرة الشونيزي اي مقبرة الشيخ جنيد الحالية، هذا ما وقع الينا من سيرة الخاتون ابنة السلطان ملكشاه السلجوقية ...

السيدة بنت ملكشاه الثانية

زوجة الخليفة المستظهر بالله العباسي

هي الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، زوجة الخليفة المستظهر بالله ابن المقتدي بامر الله ، وأخبارها على قلتها عجيبة غريبة ، وزوجها الخليفة احمد المستظهر بالله ولي الخلافة في سنة ٤٨٧ ، بعد وفاة أبيه المقتدي بامر الله ، وكان — أعني المستظهر — ابن ست عشرة سنة وشهرين حد ولايته الخلافة ، وفي سنة ٥٠٢ أراد أن يتصل بالسلاجقة بالمصاهرة ، وكان سلطانهم محمد بن السلطان ملكشاه ، وكانت في حمايته الخلافة العباسية ، فخطب اليه الخليفة المستظهر بالله اخته الخاتون بنت ملكشاه الثانية ، فاجابه إلى خطبته ، وأجري عقد الزواج بمدينة اصفهان عاصمة الدولة السلجوقية ، في يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٠٢ المذكورة ، وكان وكيل الخليفة وزير السلطان محمد ، وهو نظام الملك الصَّغير احمد ابن نظام الملك الكبير ، وخطب خطبة الاملاك الفقيه ابو العلاء صاعد بن محمد الحنفي النيسابوريّ ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، على جاري عادة الخلفاء والسلاطين إذ ذاك ، ونُثر في العقد دنانير وجواهر ، وبقيت الخاتون باصفهان حتى سنة ٥٠٤ . ففيها بعث الخليفة المستظهر بالله القاضي زين الاسلام محمد بن نصر الهرويّ ، الى اصفهان لاستحضار زوجته الخاتون ، وفي تلك السنة

في يوم السبت الثامن والعشرين من رجب منها جيء بها الى بغداد ، وكان اخوها السلطان محمد بن ملكشاه ببغداد ، فنزلت عنده بدار المملكة في ارض العيواضية الحالية ، ثم نقل جهازها في شهر رمضان ، على مائة واثنين وستين جملا وسبعة وعشرين بغلا ، وكان في الجهاز جوار مزينات يمشين بين يدي محفة الخاتون ، وجنائب ومهور ، وزينت بغداد وغلقت الاسواق ونصبت القباب ، وهي كأقواس النصر والظفر في عصرنا ، وتشاغل اهل بغداد بالفرح ، وكان زفاف الخاتون الى المستظهر بالله في ليلة العاشر من شهر رمضان وكانت ليلة زفافها من ليالي السرور العظيمة ، وكان للمستظهر زوجة اسمها ست السادة نزهة وكانت صفراء .

هذه اخبار زواج الخاتون وزفافها ، وهي كما يسمع الملقي سمعه ، مختصرة مقتضبة ، لا تفصيل فيها ولا تلخيص ، فالتواريخ التي تحت يدينا لم تذكر اسمها ولا تاريخ مولدها ، ولا اوصافها وشمائلها ، وبزواجها انتقلت من بيت السلطنة الى بيت الخلافة ، فكان ذلك اشد خفاءً لأخبارها ، واعظم ستراً لأحوالها ، على أننا نفتش التواريخ تفتيشاً دقيقا ، ونتفحصها تفحصاً محكما ، ونلتقط الأخبار النقاطاً ، وقد وجدنا خبراً لهذه الخاتون زوجة المستظهر بالله في حوادث سنة ٥١٧ ، وهي سنة بناء السور على بغداد الشرقية ، اي بغداد التي كان يبتدىء سورها من فوق القلعة نحو الشرق الى جهة قبر الشيخ عمر السهروردي ، ثم باب الشيخ حتى الباب الشرقي ، فان الخليفة المسترشد بالله بن المستظهر بالله وامه نزهة ضرة الخاتون المذكورة ، هو الذي تولى الخلافة

بعد أبيه ، وكانت وفاة أبيه سنة ٥١٢ هـ ، فالخاتون اذن عاشت مع زوجها الخليفة المستظهر ثماني سنوات ، وتوفي عنها فبقيت أيِّما ، وكان لهـــا مال واقطاع أي مقاطعات ، وسلطة كبيرة لأن اخوتها كانوا سلاطين العالم الشرقي ، وهم السلطان محمد الذي ذكرناه ، والسلطان بركيارق والسلطان سنجر ، أجل ورد ذكرها في خبر بناء السور سنة ٥١٧ ، وتفصيل ذلك أن الخليفة المسترشد بالله أمر في هـــذه السنة ببناء السور ، ليحصن بغداد ويعيد الى الدولة العباسية استقلالها ، لأن الدفاع داخل الاسوار كان من قواعد الحروب وضروب الاعتصام في ذلكم الزمان ، وكان اهل بغداد يعملون في السور يبني فيه أهل كل محلة منهم اسبوعا ، ويخرجون بالطبول والصنجات والملاهي ، ومن آثار ذلك السور باب الظفرية المعروف اليوم بالباب الوسطاني ، ورأى الخليفة المسترشد في تلك الايام فرصة لطهور أبنائه وابناء اخوته ، وكانوا اثني عشر صبياً ، فأذن للناس ان يقيموا معالم الفرح ، ويعلقوا ادوات السرور وآلات الابتهاج ، فعلقوا الثياب الديباج والجواهر ، وظهر لهم من ذلك منظر رائع الجمال والمـــال ، وعملت الخاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة المستظهر بالله ، قبة بباب النوبي ، والقبة كما قلنا تشبه قوس الظفر في عصرنا ، وباب النوبي كان احد ابواب دار الخلافة العباسية ، فوق ارض جامع الخاصكي بقليل ، وعملت قبة ثانية بدرب الدواب ، وهو درب محلة الرواق ، وكان في القبة غرائب منحوتة وحلل عجيبة ، ونصب عليها ستران من الديباج الرومي ، مقدار كل واحد منهما عشرون

ذراعاً في عشرين ، وعلى احدهما اسم الخليفة المتقي لله وعلى الآخر اسم المعتز بالله ، واظهر الناس اشياءهم المخبوءة وجواهرهم المكنوزة ، وعرضوها سبعة أيام بلياليهن .

وفي سنة ٥٢٦ في خلافة المسترشد بالله ، تكلم أهل بغداد في الخاتون المذكورة بسبب شاب بغدادي يعرف بابن المهتر أي رئيس الفراشين ، فقتل الخليفة المسترشد ابن المهتر المذكور ، واظهر للناس انه هرب ، وأحضر مملوك الخاتون واسمه نازح أو هو مصحف الاسم فقيل له : (انت حافظ الخاتون وقد قذفت بالزنا مع ابن المهتر) فصفعوه وأخذوا خيله وقريته ، واما الخاتون فان ابن زوجها الخليفة المسترشد بالله ، اخذ منها مقاطعتها ، وطرد خدامها ومماليكها ، وأقام معها في دارها من يحفظها ، وكتب الى اخيها السلطان سنجر بالقضية ، وكان سنجر سلطان خراسان اكبر السلاطين من بني سلجوق اذ ذاك ، يستأمره في أمر اخته الخاتون ، واشتهر امرها بين الناس ، وكتبت هي الى اخيها السلطان سنجر تشكو المسترشد ، واذ كانت القضية تمس عرض الامبراطورية السلجوقية ، فضلاً عن عرض الخلافة العباسية ، قامت بين الدولتين عداوة زرقاء ، ونشأ حقد وتضاغن ، نسي فيه الدين وتزلزل فيه اليقين ، فقد قيل ان السلطان سنجر كتب الى اخته ببغداد انه عازم على الفتك بالخليفة المسترشد بالله ، بما فضح البيت السلجوقي ، فضيحة لا يزول ذكرها على مر الدهور وكر العصور ، وعلم الخليفة المسترشد بالله ان السلطان سنجر في جانب اخته عليه ، فانه اخذ منها الكتاب الذي ارسل به اليها

أخوها ، وهيجه ما رآه فيه من التوعد والتهدد ، فحمله ذلك على الخروج الى قتال السلطان سنجر ، وقطع خطبته ببغداد ونواحي العراق الاخرى ، والخطبة بالسلطنة لمسعود بن محمد بن ملكشاه ، ومن بعده لداود بن محمود بن محمد بن ملكشاه وهو ابن أخي مسعود ، ثم اتحد السلجوقيون الا واحداً منهم على الخليفة ، وخرج الى حربهم فكسروا جيشه العراقي قرب همذان وأسروه ، ثم بعثوا عليه رجالاً فقتلوه في خيمته سنة ٥٢٩ ، ومثلوا به أقبح تمثيل : جدعوا أنفه وأذنيه وتركوه مجرداً عرياناً ، وكان في ذلكم التمثيل دليل على الانتقام للعرض على نحو ما تفعل الأقوام الوحشية حتى اليوم ، والا فليس فوق القتل واعدام الروح فعل يقام له وزن ، ويكون له أثر ، وأذى ، واتهم السلجوقيون بهذه الجريمة الشنيعة الاسماعيلية الباطنية ليخلصوا منها .

وبقيت الخاتون ببغداد بعد قتل المسترشد بالله ، وكان لها أثر محمود في حصار بغداد سنة ٥٣٠ ، فان السلطان مسعوداً حاصر فيها الخليفة الراشد بن المسترشد ، وخاف اهل بغداد فحمل كثير منهم اموالهم الى دار الخليفة ودار الخاتون ، ثم خرج الخليفة الراشد من بغداد رابع عشر ذي القعدة بعد ان سلم دار الخلافة ومفاتيحها الى الخاتون ، فأخرجت اصحابها لحفظ باب النوبي من ابواب دار الخلافة ، وقد قلنا انه كان فوق ارض جامع الخاصكي بقليل ، وترك الراشد نساءه وأولاده عند الخاتون ايضا ، ثم دخل السلطان مسعود بغداد ظافراً وأخذ جميع ما كان للراشد من المال والمقاطعات ، فمضت اليه الخاتون وهو بدار المملكة

ومرت في مضيها بسوق الثلاثاء ، اي سوق باب الأغا الحالي وما يتصل به من الاسواق ، وبين يديها القواد والجنود الاتراك واستعطفته واسترحمته ، فرد على أهل الراشد جميع ما اخذه على التقريب ، وحرر لهم ما كان في ملكهم من المقاطعات ، وعظمت منزلة الخاتون بعد ذلك حتى استوزرت لنفسها صاحب مخزن الخلافة وكان كوزير المالية ، وكانت لها مقامة محمودة ايضاً في سنة ٥٣٢ ، فان السلطان مسعوداً استولى على بلاد بني دبيس الاسدي المزيدي ، من الحلة وغيرها من سقي الفرات ، وبقوا في ضيق شديد فأرسلوا اختهم سفرى بنت دبيس ابن صدقة ملك العرب ، الى الخاتون زوجة المستظهر المذكورة تستشفع بها الى السلطان مسعود ، ليعيد عليها بعض ما اخذ منها وشكت اليها الضرّ ، وكانت سفرى بنت دبيس هذه من زوجتيه كهار خاتون بنت عميد الدولة محمد بن محمد بن جهير الوزير ، وكانت سفرى في غاية الجمال ، فوصفتها الخاتون للسلطان مسعود فقال لها : « أحضريها عندك حتى أحضر القضاة واتزوجها » ففعلت وتزوجها وأمر الوزير بان تزين بغداد لزواجه سبعة أيام ، فظهر في التزيين فساد عظيم بضرب الطبول والزمور والحكايات اي التمثيل الهزلي ، وشرب الخمور جهاراً . هكذا قال احد المؤرخين .

وفي سنة ٥٣٣ وصل رسول من طغرل بن قاورت السلجوقي ملك كرمان ، الى السلطان مسعود يخطب اليه عمة أبيه الخاتون زوجة المستظهر بالله ، وكان بين موت زوجها الخليفة وخطبتها الثانية إحدى وعشرون سنة ، وكان مع الرسول

تحف حسنة ، فأرسل السلطان مسعود وزيره الى دار الخاتون فأستأذنها في تزويج نفسها بالملك المذكور ، فأذنت في ذلك ، فحضر القضاة دار المملكة ووقع الاملاك في ثامن عشر صفر من السنة المذكورة ، على صداق مقداره مائة الف دينار ، ونثرت فيه الدراهم والدنانير – على جاري العادة – ، ثم سيرت الخاتون الى كرمان فماتت عند وصولها الى هناك ، وذلك سنة ٥٣٦ في خلافة المقتفي لامر الله ، وورد الخبر بغداد بموتها فعمل له عزاء قعد فيه يومين في الديوان ، قال احد المؤرخين : وكانت دارها ببغداد حمىً للناس ولها هيبة واصحاب في خدمتها ، وبقيت صفحات أخبارها – على قلتها – كما قلنا عجيبة غريبة ، فانها أثرت في السياسة وفي التاريخ واحدثت عداوة بين بيت الخلفاء وبيت السلاطين السلاجقة ، بشذوذ سيرتها واتيانها امراً اداً ، أما زوجها الثاني طغرل بن قاورت السلجوقي ملك كرمان، فقد توفي سنة ٥٦٥ ، أي بعد زواجه بها بتسع وعشرين سنة ، وهذا يدل على التفاوت بين اعمارهما وعلى ان الزواج كان لصيانة الشرف لا غير .

فاطمة خاتون

بنت السلطان محمد السلجوقي

هـذه السيدة المعظمة هي فاطمة خاتون بنت السلطان محمد بن السلطان ملكشاه بن السلطان ألب ارسلان السلجوقي . وزوجة الخليفة العباسي العظيم المقتفي لامر الله ، محيي شرف الدولة العباسية ، ومعيد استقلالها ، ومجدد جلالها ، وقاصم ظهور اعدائها ، ورافع لواءها المنصور .

انا لم نجد في التاريخ سنة ولادة السيدة فاطمة خاتون ، ولا عثرنا على شيء من نشأتها في صباها . وهي في هذا الغموض من السيرة كسائر الاميرات وبنات السلاطين والملوك فضلاً عن بنات الخلفاء . ولولا تزوج الخليفة المقتفي لامر الله لها لطوى الزمان اسمها مع الاسماء المطوية – على جلالتها ونبلها – فتاريخنا تاريخ الرجال .

كان لفاطمـــة خاتون خمسة اخوة : محمود ومسعود وطغرل وسليمان وسلجوق ؛ صار اربعة منهم سلاطين في الدولة السلجوقية ، والذي لم يخطب له بالسلطنة هو سلجوق . ولا ندري كم أختاً لها ، وكانت تقرأ وتكتب وذلك نادر في بنات تلك العصور وان كن سليلات السلاطين . وسبب زواجها أن السلطان سنجر بن ملكشاه وابن اخيه السلطان مسعوداً – أعني عمها وأخاها – بعد أن تواطآ على قتـــل الخليفتين العباسيين الشهيدين المسترشد بالله والراشد بالله ، قبحت سمعتهما ، ونفرت منهما قلوب الرعايا ، وطعن

الناس على عقائدهما ، فأرادا ان ينفيا عن أنفسهما تلك الجريمة الفظيعة ، ويتملصا من تلك الجناية الشنيعة ، فزوجا أبا عبدالله محمد المقتفي لامر الله فاطمة خاتون ، وطلبا اليه أن يزوج ابنته السيدة زبيدة بالسلطان مسعود أحد السلطانيين الطالبين ، وكان زواج السيدة زبيدة على قاعدة زواج السيدة بنت القائم بامر الله العباسي بطغرل بك ، اي ان لا يلامسها حتى يفرق بينهما الموت ، لانها عباسية وهو تركي ولم يكن كفوءاً لها ، وقد أرادا بذلك ان يظهرا للناس تعلقهما بالدولة العباسية واخلاصهما لبني العباس ، ومصافاتهما لهم ، وهكذا تكون اعمال المرائين ومكائد المجرمين ، يقتلون بيد ويصافحون باخرى .

وفي شعبان من سنة ٥٣١ عقد للمقتفي لامر الله على فاطمة خاتون ببغداد ، وكان مبلغ صداقها « مائة الف دينار » وهو صداق جد نادر في التاريخ ، وكان وكيل المقتفي لامر الله شرف الدين ابو القاسم علي بن طراد الزينبي العباسي ، وحضر العقد اخوها السلطان مسعود واكابر الدولة ، ونثرت في العقد جواهر وحب لؤلؤ وتماثيل كافور وعنبر ، وفي سنه ٥٣٤ دخلت فاطمة خاتون بغداد في صحبة اخيها السلطان مسعود ، واقامت عنده بدار المملكة وكانت في محلة العلوازية ، ثم زفت في جمادى الآخرة وقيل في الاول الى الخليفة المقتفي في زي عجيب وموكب مهيب ، وكان في موكب زفافها زوجة السلطان مسعود سفرى بنت دبيس بن صدقة الاسدي المزيدي ملك الحلة ، وأميرة سلجوقية من كبيرات الاميرات والوزير شرف الدين الزينبي المذكور ، وموكب الدولة العباسية وفيه المهد ، وهذا المهد شيء مستحدث

اتخذته الدولة العباسية في مواكبها ، على نحو سكينة بني اسرائيل ، وزينت بغداد عشرة ايام ابتهاجاً بذلك الزواج العظيم المشهود ، وقد وصفت هذه السيدة على قلة اخبارها بالتدبير الصائب والرأي الحسن ، ومن اخبارها انها كانت ذات ليلة من سنة ٥٤١ مع زوجها الخليفة في قصر من قصور دار الخلافة مشرف على مشرعة باب الغربة ، اي شريعة المصبغة الحالية في شارع السموءل ، وكانت تعرف ايضاً بشرعة الابريين اي باعة الابر ، فاحترق القصر كله من شمعة كانت بيد جارية من جواري السيدة لان نارها علقت باطراف خيش وهو نسيج كالجنفاص كان يستعمل للمراوح في الصيف ، وخرج المقتفي وفاطمة خاتون ليلاً من القصر هرباً من النار واحترق في القصر اثاث عظيم وآلات كثيرة وزي رائع ، ولما اصبح المقتفي اطلق المسجونين وتصدق باموال كثيرة ، شكراً لله على سلامته وسلامة زوجته ، وسكنت فاطمة خاتون بعد ذلك قصراً في دار الخلافة يعرف بدركاه خاتون اي قصر الخاتون ، وهي زوجة المستظهر بالله العباسي ، والحي الذي كان حوله من داخل سور دار الخلافة عرف بالخاتونيتين ، الخاتونية الداخلة والخاتونية الخارجة ، وكان ذلك القصر من ابنية الخليفة المستظهر بالله والد المقتفي لامر الله ، وقد داخلت ارضه بعد ذلك فيما وراء جامع مرجان من الشارع والخانات والعمارات والدكاكين ، ويصعب تعيين بقعته مع هذا التغيير الكبير في خطط بغداد العتيقة ، ولا سيما خطط دار الخلافة العباسية المتأخرة ، فانها كانت كنصف دائرة تبدأ من مشرعة شارع السموءل وينحني قوسها على شرقي

شارع الرشيد ، وينتهي عند مشرعة السيد سلطان علي ويدخل في ذلك بساتين دار الخلافة العباسية والحير اي حديقة الحيوانات ، ودواوين الدولة على كثرتها وانواعها . فهذه دار الخلافة الشرقية في اواخر الدولة العباسية . ولم تعش فاطمة خاتون في دار الخلافة العباسية عيشاً طويلاً ، فانها توفيت في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ٥٤٢ ، وصلى عليها الشريف الاكمل نور الهدى نظام الحضرتين ابو القاسم علي بن الحسين الزينبي الحنفي ، قاضي قضاة الدولة العباسية ، في صحن السلام بقصر التاج وكان في ارض المحكمة الشرعية وما جاورها ، ثم حملت جنازتها من دار الخلافة في زبزب وهو نوع من السفن في تلك العصور ، واصعدوا بها الى ترب العباسيين اي مدفنهم في محلة الرصافة ، وكانت محلة الرصافة في جنوبي محلة الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت ، وان ارض المقبرة الملكية « بكسر اللام » الحالية ، قرب الاعظمية كانت من محلة الرصافة ، وكان حول الرصافة في اواخر الدولة العباسية سور يفصلها عن محلة ابي حنيفة ، وان كانتا متجاورتين ، متشاهدتين .

ودفنت فاطمة خاتون هناك ، قرب مدفن الخليفة المستظهر بالله والد زوجها داخل القبة ، وكان ذلك تعظيماً لها لأن الرصافة كانت مقبرة خاصة العباسيين حسب ، ولايدفن فيها الا العباسيون والعباسيات ، من اسرة الخلفاء ، وقد زال قبرها بزوال قبر المستظهر بالله وغيره من قبور بني العباس ، فان هولاكو الجبار لما حاصر بغداد سنة ٦٥٦ احرق مقابر الخلفاء بالرصافة ونبش قبورهم وبرزت منها الرؤوس والعظام ،

وفي ذلك قال شمس الدين محمد بن عبيد الله الكوفي الشاعر الواعظ وقد رأى ما فعل التتار بالقبور :

ان ترد عبرة فتلك بنو العباس حلت عليهم الآفات
استبيح الحريم إذ قتل الاحياء منهم واحرق الاموات

وقد ذكر ابن بطوطة قبور بني العباس بالرصافة ذكراً يشك فيه لانه سرد اسماءهم من المهدي الى المستعصم بالله ، وقال : « وعلى كل قبر منها اسم صاحبه» وفي اقواله مجازفة وسهو - كما هو ظاهر للمحققين في التاريخ.

ومن الغريب ان هذه السيدة الجليلة النبيلة لم تترك شيئاً من الآثار ببغداد ولا في غيرها ، وأن بقاءها في عصمة الخليفة المقتفي لامر الله ثماني سنوات كان كافياً في اتيان عمل من الاعمال الصالحة الباقية ، وقد ذكرها العالم الخططي كاي تسترنج الانكليزي في كتابه الخططي الموسوم ببغداد في عهد الخلافة العباسية وقال : « اشتهرت بكونها أميرة ذات عقل وعلم وسلطان وقدرة في الشؤون السياسية اذ ذاك ، وقد وافتها المنية في دركاه خاتون سنة ٥٤٢ قبل وفاة زوجها المقتفي لامر الله ، فدفنها في قبور الخلفاء في الرصافة » . وفي اقواله تزيد وتسمح وتساهل . والظاهر أنه نقل ما ورد في وفيات الاعيان استطراداً فقد قال مؤلفه : « ويقال ان فاطمة خاتون كانت تقرأ وتكتب ولها التدبير الصائب ، وسكنت في الموضع المعروف بدركاه خاتون وتوفيت في عصمة المقتفي يوم السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٥٤٢ ، ودفنت بالرصافة . رحمة الله عليها » . هذا قول مؤلف الوفيات وبين القولين فرق مبين وان كان الرجل مثنياً ثناءً حسناً .

السيدة زبيدة بنت المقتفي لأمر الله

ذكرت في البحث السابق لهذا ان السلطان مسعوداً السلجوقي ، زوج أخته فاطمه خاتون بنت السلطان محمد السلجوقي ، بالخليفة المقتفي لأمر الله ابي عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، وحمل الخليفة المذكور على ان يزوجه ابنته السيدة زبيدة ، اظهاراً منه ومن عمه السلطان سنجر لمصافاتهما البيت العباسي ذا الخلافة، وللتعفية على معالم الجريمة الكبرى التي اجرماها ، باغتيالهما الخليفتين العظيمين المسترشد بالله وابنه الراشد بالله . وفي رجب من سنة ٥٣٤ هـ عقد املاك السلطان مسعود للسيدة زبيدة ، وحضر العقد وزير الخليفة ابو القاسم علي بن طراد الزينبي العباسي ، ووزير السلطان مسعود ، وكان صداقها مائة الف دينار ، اي بقدر صداق فاطمة خاتون السلجوقية ، ونثر في العقد نثار عظيم ، وكنا اشرنا الى ان هذا الزواج كان كزواج السيدة بنت الخليفة القائم بامر الله ، اشترط فيه على السلطان المذكور ان لا يدخل بها ولا يلامسها حتى يفرق الموت بينهما ، وقد كانت صغيرة ايام املاكها ، قال المؤرخ المحدث الكبير عز الدين ابن الاثير في النسخة الاولى من تاريخه الكامل وهي غير المطبوعة : « واستقر ان يتأخر زفافها خمس سنين لصغرها » .

قلت : وكيفما كان الأمر فان زواجها كان شكلياً لا حقيقياً،

وهو ظلم صريح تنفر منه البشرية وترفضه الانسانية اشد الرفض ،
وإذ كان الشيء بالشيء يذكر والحديث ذا شجون ، حسن ان
نذكر جهل من اخترع قصة املاك جعفر بن يحيى البرمكي ،
بالعباسة أخت الرشيد مع كونه من المستحيلات شرعاً وعرفاً
وشرفاً ، لأنها كانت هاشمية عباسية ، ولم يكن من اكفائها قط ،
هذا من جهة العقل والرسوم ، واما دليل النقل فهو ان العباسة
بنت المهدي كانت زوجة محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله
بن العباس ، زوّجه اياها ابوها المهدي وحملها اليه وهو في البصرة ،
وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قلده اياها مرتين ، الثانية منهما
في سنة ١٥٩ ، واقره المهدي ثم الرشيد عليها وتوفي سنة ١٧٣هـ.

ويظهر أيضاً من كون زواج السيدة زبيدة وزواج السيدة
بنت القائم بامر الله للتشرف واكتساب الأجر ، بطلان ما ادعاه
جرجي زيدان في احدى رواياته من ان طغرل بك ، اراد ان
يكون له ابن من السيدة العباسية فيبايع بالخلافة بعده ، حتى
لقد جرى هذا الوهم بين الناس جري المسلّمات ، ولم يفكروا في
ان اسباط الخلفاء العباسيين لا يجوز لهم ولاية الخلافة ابداً ، ومن
الحق ان الروايات التاريخية المكسوة خيالاً ، يجب فيها ان
تستمد من حقائق التاريخ وتوابينه وتحاسينه ، لئلا تفسد على الناس
تاريخهم وتضل المبتدئين بدراسة السِيَر ، وتوهم المتوسطين لدراستها.

اجل تزوج السلطان مسعود السلجوقي السيدة زبيدة بنت
المقتفي لامر الله تزوجاً لفظياً ، ولم يتصل بها حتى توفي سنة ٥٤٧ هـ ،
وكان سواءً عليها حياته وموته ، بل كان ذلك العقد وصمة من

وصمات الزمان ومصيبة عظيمة من مصائبه ، لما كان عليه هذا السلطان من الجور والجبروت والظلم والعسف ، والاسراع الى سفك الدماء حتى دماء الخلفاء ، وسوء الولاية والتدبير ، وقبح السيرة والسريرة ، وغبرت السيدة زبيدة بعده اثنتين واربعين سنة ، وتوفيت ببغداد سنة ٥٨٩ هـ . ولم نجد فيما تحت ايدينا من التواريخ اين دفنت ، ولو كنا ممن يفرطون في علم الخطط الذي هو فن جليل مستقل لقلنا ان القبر المشهور المعروف عند الشيخ معروف الكرخي هو قبرها ، فان الست زبيدة واسمها « امة العزيز » زوجة هرون الرشيد دفنت في مقابر قريش وهي الكاظمية الحالية كما ذكرنا في الكتاب ، فنحن لا نقول ذلك ولن نقوله حتى نجد في التاريخ نصاً قاطعاً لكل شبهة ، ولكنا نرى ذلك مستحيل الوقوع لان زبيدة بنت المقتفي لامر الله كانت توجب رسوم الدولة العباسية في عصرها ، ان تدفن في مقابر الخلفاء العباسيين في محلة الرصافة ، وهي اليوم الارض التي بنيت فيها المقبرة الملكية في جنوبي الاعظمية ، ثم اننا لم نجد لهذه السيدة اخباراً تذكر سوى ما اثرناه لمن القوا الينا اسماعهم ، بعد ما اثرناه من بطون الكتب ، ومن الغريب ان جماعة من المؤرخين ذكروها باسم السيدة بنت المقتفي ولم يصرحوا باسمها ، منهم المؤرخ الكبير المحدث عز الدين ابن الاثير ، والامام العلامة جمال الدين ابو الفرج بن الجوزي .

وكان لهذه السيدة مولىً من الموالي الاتراك اسمه « ابو سعيد ارسلان ابن عبدالله » الرومي ، ويعرف بالسيدي نسبة الى السيدة المذكورة ، وكان رجلاً صالحاً اقبل على سماع الحديث النبوي

ولقنه عن الشيوخ ببغداد ، فممن روى هو عنه الحديث الشيخ ابو المعالي احمد بن عبد الغني بن خليفة الباجسرائي ، من قرية باجسر المعروفـــة بأبي جسرة اليوم فوق بعقوبا ، وعمّر حتى بلغ نيفاً وتسعين سنة من العمر ، وروى الحديث النبوي ، قال جمال الدين ابن الدبيثي المؤرخ المحدث المقرىء : « سمعنا منه الحديث » ، وقال ايضاً : قرأت على ارسلان بن عبدالله السيدي [قلت له] : اخبركم ابو المعالي احمد بن عبدالغني بن محمد التانيء [ورفع الحديث الى عبدالله بن مسعود قال] قال رسول الله — صلوات الله عليه — « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، وهذا الحديث الكريم من اجل الاحاديث في تربية ما يسميه المعاصرون بالمجتمع . ولو لم يكن لهذه السيدة العظيمة من المآثر الا هذا الولاء الذي كسبته الشيخ ارسلان ، حتى صار محدثاً لوجب ذكرها واحسان الحديث في سيرتها ، فكيف وهي بنت خليفة وزوجة سلطان ؟ وتوفي الشيخ ابو سعيد ارسلان السيدي ببغداد ، في اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة من سنة ٦٣٦ هـ . ودفن في المقبرة الوردية في الجانب الشرقي من بغداد ، وهي المعروفة بمقبرة الشيخ عمر السهروردي .

أما المؤرخون الذين ذكروا السيدة زبيدة بنت المقتفي لامر الله وباسمها الصريح ، وقرأنا ذلك في تواريخهم ، فهم علي بن ابي الفرج البصريّ مؤلف الحماسة البصرية ، فقد ذكرها في تاريخه الموسوم « بالمناقب العباسية والمفاخر المستنصرية » وقد ألفه سنة ٦٥٩ هـ . والمؤرخ شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وصـــلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات ، وجمـــال الدين بن تغري بردي

مستطرداً ، الى ذكرها في ترجمة احدى السيدات العظيمات اللاتي كان صداقهن « مائة الف دينار » ، وذلك في كتابه « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » ، وكل هذه الكتب خطية . قال ابن تغري بردي في اصداق عظيمة « وكان صداقها على زوجها مائة الف دينار كصداق خديجة السلجوقية على الخليفة القائم بأمر الله ، وكذلك المكتفي زوّج ابنته زبيدة بالسلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، على صداق مائة الف دينار » . وقد قال « المكتفي » بالكاف ولم يقل المقتفي بالقاف ، وقوله غلط صريح ، فانها بنت المقتفي لأمر الله المتوفى سنة ٥٥٥ لا بنت المكتفي المتوفى ٢٩٥ ، وبين وفيانهما مائتان وستون سنة ، وهذا الغلط يدل على ان المؤرخ لا يكون بارعاً إلا اذا كان قوي الحافظة متين الذاكرة . وإلا كان كثير الاوهام والسهو .

الست بنفشة

(سيرتها وآثارها، ومدرستها بالجانب الشرقي، وقبرها تحت قبة الست زبيدة)

ان هذه السيدة الكبيرة كانت في اول امرها مملوكة رومية من الجواري اللاتي افضت النخاسة بهن الى دار الخلافة العباسية، فمنهن من صرن بعد اعتاقهن من رقهن سيدات، ومنهن من اصبحن امهات للخلفاء والامراء، ولما كانت المرأة قليلة الحظ من التاريخ الاسلامي لم يكن غريبا قط أن نجهل من اول تاريخ الست بنفشة جانبا، ولولا أنها أثرت آثاراً حسنة واتت افعالا مستحسنة ما احتوى على ذكرها تاريخ ولا اشار الى اسمها. لقد كان سيدها الخليفة المستضيء بأمر الله تقيا ورعا مستقيم السيرة عادلا الا انه كان مستضعفا عاجزا عن الاضطلاع بامور الخلافة مستكينا، فكثرت الاضطرابات في عهده، وتنافس الامراء والوزراء في الاخذ بزمام السلطان. واستدعى ذلك احياء العصبيات المذهبية، وطمع الدولة السلجوقية في تجديد حكمها في العراق بعد انقراضه، وتنقص ملوك الاطراف وامرائها لاطراف العراق ثم انتهى ذلك كله بموت هذا الامام واستخلاف ابنه الخليفة الهمام الناصر لدين الله بالتاريخ الذي ذكرناه قبل هذا – نعني سنة وفاته –.

وكان من المتوقع ان تكون الست بنفشة كسيدها تقية زاهدة عابدة تصرف همتها لأعمال البر والاحسان والآثار الكريمة،

والافعال الخالدة ، وكان للمستضيء بأمر الله جارية اخرى اسمها زمرد خاتون . وكانت المنافسة بينهما طبيعية وكل منهما كانت تلقب بالجهة ، وهي كناية عن السيدة العظيمة من سيدات الخلفاء والسلاطين . الا ان زمرد خاتون ولدت لسيدها من الاولاد فصارت حرة بعد اعتاقها او ولادتها ، وتأثل لها فضل عظيم بذلك . وكانت بنفشة حنبلية المذهب وزمرد شافعية المذهب ، وكانت على شافعيتها تعطف على الحنابلة وتحسن اليهم وترعى مصالحهم طول خلافة زوجها المستضيء بأمر الله والمدة التي عاشتها من خلافة ابنها الخليفة الناصر لدين الله ، وهذا امر يدل على التسامح المذهبي النبيل .

ومن اجمل آثار الجهة بنفشة مدرسة كانت اتخذتها للحنابلة سنة ٥٧٠ ، في باب الشعير بباب الازج [١] من بغداد . قال جمال الدين ابو الفرج ابن الجوزي في حوادث هذه السنة « وفي يوم الخميس خامس عشري شعبان سلمت اليّ المدرسة التي كانت داراً لنظام الدين ابن ابي نصر (المظفر بن علي بن محمد) بن جهير ، وكانت قد وصلت ملكيتها ، الى الجهة المسماة بنفشة فجعلتها مدرسة وسلمتها الى ابي جعفر بن الصباغ ، فبقي المفتاح معه اياماً ثم استعادت منه المفتاح وسلمته اليّ من غير طلب كان مني ، وكتب في كتاب الوقف « انها وقف على اصحاب احمد (بن حنبل رضي الله عنه) وتقدم اليّ يوم الخميس المذكور بذكر الدرس في المدرسة ، فحضر

---

(١) باب الأزج اسم لمحلة كبيرة كانت تسمى بها المواضع التي تشمل محلة السيد سلطان علي ورأس الساقية حتى تربة الشيخ الجليل عبد القادر الجيلي المعروف بالجيلاني ايضا .

قاضي القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد وخلعت علي خلعة نفيسة، وخرج الدعاة بين يدي والخدم، ووقف اهل بغداد من باب النوبي الى باب المدرسة كما يكون في العيد واكثر. وكان على باب المدرسة الوف، والزحام على الباب، فلما جلست لالقاء الدرس عرض كتاب الوقف على قاضي القضاة وهو حاضر مع الجماعة فقرىء عليهم وحكم به وانفذه، وذكرت بعد ذلك الدرس فالقيت يومئذ دروساً كثيرة من الاصول والفروع وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله».

وكان ابن الجوزي قد اشار الى هذه المدرسة في حوادث سنة ٥٤٢ قال: «وعزل (نظام الدين المظفر بن علي بن محمد) ابو نصر بن جهير في ربيع الاول عن الوزارة وسكن بالدار التي بناها بشاطىء دجلة بباب الازج وهي التي آل امرها الى ان صارت ملكاً لجهة المستضيء بامر الله (بنفشة) فوقفتها مدرسة لاصحاب احمد بن حنبل، وسلمتها الي، فدرست فيها سنة سبعين وخمسمائة». واشار الى هذين الخبرين ابو المظفر يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي، وقال زيادة على ما ذكره جده «وهي اليوم (سنة ٦٥٤ هـ) تعرف بمدرسة ابن الجوزي» وان بنفشة وقفت على المدرسة قرية، وان الذين اجتمعوا في الطرق يوم افتتاح المدرسة ينيف عددهم على خمسين الف انسان. واشار الى وقف القرية على المدرسة تاج الدين بن الساعي وسيأتي النقل عنه.

وهذه المدرسة هي التي رأى الاديب الرحالة ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ ابن الجوزي فيها، وسمع دروسه، وظن انها داره مع ان كثيراً من مدرسي تلك العصور كانوا يسكنون في المدارس التي

يدرسون فيها . قال ابن جبير : « ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت (١٣ صفر سنة ٥٨٠) ... مجلس الشيخ الفقيه الامام الاوحد جمال الدين ابي الفضائل (عبد الرحمن) بن علي الجوزي بازاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية[1] آخر ابواب الجانب الشرقي وهو يجلس به كل يوم سبت ، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد وفي جوف الفرا كل الصيد ، آية الزمان وقرة عين الايمان رئيس الحنبلية ... » ثم قال مكرراً وصف هذا المجلس العظيم « وحضرنا له مجلساً ثالثاً يوم السبت الثالث عشر لصفر بالموضع المذكور بازاء داره على الشط الشرقي ، فاخذت معجزاته البيانية مأخذها فشاهدنا من امره عجباً » .

وفي الجانب الشرقي اليوم قرب دجلة على مقربة من قصر النقيب ، تربة رجل كتب على بابها انه الشيخ ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المذكور ، وهذا اختلاق مسند الى جبر بن جبير في ظنه ان مدرسة الست بنفشة كانت داراً اصلية وملكاً لابن الجوزي ، والى انه دُفن في ذلك الموضع ، وهذا وهم تاريخي مبين ، لان مترجمي ابن الجوزي اجمعوا على انه دفن بباب حرب في الجانب الغربي من بغداد .

وسميت هذه المدرسة ايضاً الشاطئية لكونها واقعة على شاطىء دجلة ، وهذا تسامح في التسمية لان عدة مدارس كانت على

---

(١) هو الباب الشرقي ، وكان باقياً الى عهد قريب فهدمته بلدية العاصمة وأزالت أثراً من آثار السلف .

الشاطىء في ذلك العصر ؟ منها مدرسة ثقة الدولة الانباري ومدرسة ابي النجيب السهروردي والمدرسة الموفقية ومدرسة عزالدين سعادة بن عبدالله المستظهري . وقد جاءت تسمية « الشاطئية » في سماع نسخة من كتاب « الانساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط والضبط » لابي الفضل محمد بن طاهر المقدسي ، بخط ابن الجوزي نفسه ، وهذا بعض نصه « كتبه عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، حامداً لله تعالى ومصلياً على رسوله محمد وآله ، وقع الفراغ منه في ليلة الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٥ بالمدرسة الشاطئية من باب الازج والحمد لله » .

وفي هذه المدرسة امتحن ابن الجوزي – اعني اصابته محنة على حسب ما ذكر سبطه – وذلك في سنة ٥٩٠ ، لانه كان من اعوان الوزير عبيد الله بن يونس الحنبلي ، وكان هذا الوزير عدواً لابناء الشيخ الزاهد عبدالقادر الجيلي الحنبلي ، فلما قبض على الوزير المذكور سلط ركن الدين عبد السلام بن عبدالوهاب بن عبد القادر الجيلي على ابي الفرج بن الجوزي في السنة المذكورة ، وتولى هو اعتقاله ، قال سبطه « وكان جدي يسكن بباب الازج بدار بنفشا وكان الزمان صيفاً وجدي جالس في السرداب يكتب وانا صبي صغير فما احسسنا الا بعبدالسلام واذا به قد هجم على جدي في السرداب واسمعه غليظ الكلام وختم على كتبه وداره وسبى عياله وجرى عليهم ما لم يجر على اقل الناس ... »

وبعد هذه الحادثة اسند التدريس في مدرسة بنفشة الى ركن الدين عبد السلام المذكور حفيد الشيخ العابد عبد القادر الجيلي ،

فدرس فيها الفقه الحنبلي ، ودرّس بعده في هـذه المدرسة الشيخ العلامة عماد الدين ابوصالح نصر بن تاج الدين عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي .

هذه خلاصة اخبار المدرسة البنفشية ،ويلتبس اسمها باسماء عدة مدارس كانت ببغداد،هي المدرسة التتشية والمدرسة الثقتية و المدرسة المغيثية،والظاهر لنا ان اخبارها انقطعت دون كثير من مدارس بغداد في تلك العصور ، فآخر مدرس – على حسب ما علمنا نحن من تاريخها – هو عماد الدين ابو صالح نصر بن عبد الرزاق ، حفيد الشيخ الفقيه عبد القادر الجيلي المذكور قبل هذا ، وقد توفي سنة ٦٣٣ هـ كما هو مذكور في المراجع التي اشرنا اليهـا من قبل . واسوأ الاحوال اثراً في مثل تلك المدرسة هو احتمال اجتراف دجلة لعمارتها لما انها على الشط والاستيلاء على وقفها ، فان زوال الوقف زوال المدرسة .

وامرت الست بنفشة ايضـاً في سنة ٥٧٠ بعمـل جسر لبغداد ، اذلم يكن لها الا جسر واحد ، فمد هذا الجسر الجديد من الدواليب بباب الغربة أي باب سوق المستنصر الحالي ، الى رقة ابن دحروج بالجانب الغربي . ومن الذين كتبوا سيرة الخليفة المستضيء بامر الله من اضاف نصب هذا الجسر اليه ، لأنـه كان سيدها وزوجها ، وهذا وهم وظلم فان الانفـاق على صنع جسر لا يسخو به الا النفوس الكريمة ولا يقوم به الا نفقات عظيمة ، فيجب ان يكون الفضل لمنشئه والذكر الحسن له ولمن ساعده على ذلك فالفضل لبنفشة .

وكان لهذه السيدة الاثر الحسن في جعل الخلافة للامام ابي العباس

احمد الناصر لدين الله ، وتنحية اخيه ابي منصور هاشم عنها . وذلك لان المستضيء بامر الله كان هو وجماعة من ارباب دولته يخشون الامير ابا العباس المذكور فاعتقله خوفاً منه . ولما احس المستضيء بدنو الاجل اراد ان يعهد الى الامير ابي منصور هاشم ، فقالت له الست بنفشة : « الله الله ان تعدل عن ابي العباس » فكانت هذه هي الكلمة الراجحة الناجحة ، فرعى الناصر لدين الله ذلك لها واحسن اليها أعظم الاحسان وانزلها في الدار التي كانت بها والدته زمرد خاتون وسيأتي في الاخبار ان بنفشة كانت تسكن في درب الدواب .

وقد وهم الاديب الكبير العلامة صلاح الدين الصفدي في عده الست بنفشة ومجد الدين هبة الله بن الصاحب من حزب ابي منصور هاشم ، فان الامر كان على ضد ذلك — بيناه — . ووهم ايضاً في اعتداد ابنية الناصر لدين الله ابنية لابنه الامام الظاهر بامر الله ووزرائه وزراء له وفتوحه فتوحاً له .

اما الدار الضخمة العظيمة التي انزل الناصر لدين الله الست بنفشة فيها ، وكانت قبل ذلك لامه زمرد خاتون ، فهي دار سوق التمر ، وكانت من الغرب متصلة بباب الغربة ، اي بـاب سوق المستنصر الحالي ، ومن الشرق متصلة بالبدرية وكانت عظيمة مشرفة على مشرعة الابريين وهي مشرعة المصبغة الحالية ، وكان لها باب عال ودركاه اي وجه فخم ، وهي الدار التي جعلها الناصر لدين الله بعد ذلك مسكناً للامير جمال الدين قشتمر الناصري ، تشريفاً له واختصاصاً . وعلى ما ذكرنا يكون موضعها في موضع الخان

المجاور لدائرة البريد في شارع السموءل ، من بغداد في هذا الزمان .

وترجمة هذه السيدة الجليلة مستفيضة في عدة تواريخ ، فقد ذكرها الاديب المؤرخ المحدث عز الدين بن الاثير ، قال : « وفيها توفيت بنفشة جارية الخليفة المستضيء بأمر الله وكان كثير الميل اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والاحسان والصدقة » . وقد بنت رباطاً « تكية » للنساء المتصوفات « الدرويشات » .

وقال السيوطي ، ناقلاً من تاريخ محب الدين محمد بن محمود النجار المؤرخ ، « وبنفشا الرومية مولاة المستضيء بالله » ، كانت صالحة كثيرة الخيرات والمبرات . قال ابن النجار : انها كانت في عيد الفطر كل سنة تخرج زكاة الفطر صاعاً من تمر وتقول : هذا ما فرضه علي الشرع وانا لا اقنع من مثلي « كذا » فتخرج صاعاً من الذهب العين دنانير متفرقة على الفقراء » . وذكرها ابن كثير في البداية والنهاية « ج ١٣ ص ٣٤ » بالثناء الحسن ، ولم يكن احسانها مقصوراً على هذه الانواع المذكورة بل تعدتها الى مجاملة العلماء وتطييب نفوس الفضلاء بمثل ما ذكره الامام ابن الجوزي من اخبار خطبة ابنته رابعة وزفافها ، قال في حوادث سنة ٥٧٢ مـــا نصه « وزفت ابنتي رابعة ليلة الاربعاء ثـاني عشر المحرم الى زوجها وكان زفافها في دار الجهة المعظمة في درب الدواب وحضرت الجهة وذلك بعد ان جهزتها بمال كثير » وقال السبط « وهذه رابعة هي والدتي تزوجها ابن رشيد الطبري وهو اول ازواجها ولم يطل عمره معها ثم زوجها جدي بوالدي بعد موت ابن رشيد ، وقد سمعت الحديث ، وزفت الى ابن رشيد في

المحرم سنة ٥٧٢ في دار الجهة بنفشة جهة الخليفة وجهزتها بمال عظيم .... ما قصد جدي بهذا الكلام إلا الاعلام بمكانته وعلو منزلته عند الخليفة ، وان احداً من ابناء جنسه لم يصل الى مرتبته غير مرة في مقالتنا .

قلت : ودرب الدواب المذكور غير مرة في مقالتنا كان في حريم دار الخلافة ، اي في موضع محلات النصارى اليوم . وذكرها تاج الدين بن الساعي قال : « كان لها بر معروف وصدقه جارية ووقفت مدرسة بباب الازج على دجلة على فقهاء الحنابلة ووقفت عليها قرية » وذكر ما قدمنا ذكره ثم قال : « ولها بطريق مكة آثار جميلة » . وذكرها ابو المظفر سبط ابن الجوزي قال : « كانت كريمة صالحة كثيرة الصدقات والصلات عمرت الربط والمساجد والجسر ببغداد ، وتصدقت باموال كثيرة على العلماء والفقراء والمساكين » . واعاد قوله ابو شامة في تاريخه ، وقال المؤرخ الكبير شمس الدين الذهبي : « كانت احب سراري المستضيء بامر الله اليه ... وكانت كثيرة الرغبة في افعال البر » . وكانت الى ما نقلنا من برها وتقواها ذات دعابة وروح خفيفة ، قال سبط بن الجوزي في ترجمة ابي الفتح صدقة بن الحسين المعروف بالناسخ وبابن الحداد الفقيه المؤرخ الحنبلي : « وكان صدقة يحسد جدي وكانت بنفشة جارية الخليفة تعلم ذلك ، فكانت تغيظه : بعثت اليه يوماً خادماً ومعه طبق مغطى بمنديل دبيقي فوضعه بين يديه فظن ان فيه حلاوة ، فكشفه فاذا بقدح من زجاج فيه ماء ، فقال الخادم : الجهة تقول لك هذا من بئر

وقعت فيه فأرة فانظر هل هو طاهر ام نجس ؟ فشتم الجهة وقال: الخلع والحلاوات والمال لابن الجوزي ، وصدقة يسأل عن الماء النجس . فابلغها الخادم « ذلك » فضحكت وبعثت له شيئاً ».

توفيت الست بنفشة (رح) في التاسع والعشرين او التاسع عشر من شهر ربيـــع الاول سنة ٥٩٨ . ذكر ذلك ابن الساعي والذهبي والسيوطي وابن النجار . قال سبط ابن الجوزي : «ولما توفيت تولت امرها والدة الخليفة (الناصر لدين الله الجهة زمرد خاتون) وجهزتها احسن جهاز ودفنتها في تربتها المجاورة لمعروف الكرخي وذلك في ربيع الاول » وقال ابن الساعي : « وصُلي عليها بالجانب الغربي عند التربة المجاورة لقبر معروف الكرخي - رح - ودفنت بها » .

والتربة التي ذكرها المؤرخان هذان هي المعروفة اليوم بقبة الست زبيدة في الجانب الغربي عند قبر الشيخ التقي الزاهد معروف الكرخي ، فهي تربة الجهة زمرد خاتون والدة الامام ابي العباس احمد الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، وقد دلت الاخبار على انها امرت ببنائها قبل سنة ٥٩٨ التي دفنت فيها الست بنفشة وبنت عندها مدرسة ورباطاً لهما تاريخ وبحث مستقل .

« كتابة المدرسة البنفشية »

قال ابو الفرج بن الجوزي في حوادث سنـــة ٥٧١ هـ : « وفي رمضان كتب عـلى حائط المدرسة التي وقفتها الجهة (بنفشة) وسلمتها اليّ ، بخط القطاع في الآجر :

وقفت هذه المدرسة الميمونة الجهـة المعظمة الشريفة الرحيمة

بدار الرواشني في ايام سيدنا ومولانا الامام المستضيء بالله امـير المؤمنين على اصحاب الامام احمد بن حنبل وفوضت التدريس بها الى ناصر السنة ابي الفتح ابن الجوزي » .

هذا ما وقع الينا من سيرة هذه السيدة النبيلة العقيلة الجليـلة وتاريخ آثارها وانها لحرية ان تكون – كما قلنا – قدوة السيدات الفاضلات .

السيدة زمرد خاتون

زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله

السيدة زمرد خاتون، كانت من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد ، وهي ام خليفة وزوجة خليفة من خلفائهم ، وتعرف اليوم قبة قبرها ، بقبة الست زبيدة عند مدفن الشيخ الزاهد العابد معروف الكرخي ، في الجانب الغربي من بغداد ، وقد رممت القبة غير مرة كما هو ظاهر فيها . وآخر من رممها الوالي كاظم باشا نسيب السلطان عبد الحميد العثماني الثاني .

ان هذه السيدة العظيمة الكريمة ، قد جهلت اخبارها وآثارها ، كما أضل الناس اسمها ، فنسبوا قبرها الى غيرها من شهيرات بنات العباس . كانت هذه السيدة في اول امرها فتاة تركية مملوكة ، جلبها الجلابون من بلاد الترك الشرقية فباعها النخاسون ببغداد ، وهيأت لها أسباب السعادة أن تكون مبيعة في دار الخلافة العباسية ، وجارية للامير أبي محمد الحسن بن يوسف العباسي ، الذي تولى الخلافة ولقب بالمستضيء بأمر الله سنة ٥٦٦ ، وهي سنة وفاة أبيه المستنجد بالله . وكان له جارية اخرى اسمها بنفشة ولها شأن عظيم في التاريخ ، وقد اعتقهما الخليفة المستضيء بأمر الله ، فصارتا زوجتين له احداهما ضرة الاخرى . ولقبت زمرد بالجهة المعظمة ، فلم يحدث بينهما ما يحدث بين الضرات ، وذلك لسمو أنفسهما

وصحة ديانتهما . وفي سنة ٥٥٢ ولدت زمرد خاتون للمستضيء ابناً ، فسماه بأحمد وكناه بأبي العباس . وهو الذي استخلف ولقب بالناصر لدين الله . وكان الخليفة المستضيء بأمر الله تقياً زاهدا ، ناسكاً عابدا ، نزعت منه امور الخلافة وشؤون الدنيا فأقبل على الآخرة ، وحذت حذوه زوجتاه زمرد خاتون وبنفشة ، واشتهرتا بالصلاح والخير والنسك والعبادة . وكانت زمرد خاتون شافعية المذهب وبنفشة حنبلية ، فبنت الاولى - اعني زمرد - مدرسة للشافعية بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي ، ورباطاً أي تكية ومدفناً لنفسها ، وهو المدفن المعروف بقبر الست زبيدة - كما ذكرناه في اول الحديث - ووقفت على الكل اوقافاً سنية دارة . وفتحت هذه المدرسة للشافعية ، يوم الخميس التاسع والعشرين من شوال سنة ٥٨٩ ، وأمرت بأن يكون مدرساً فيها فخر الدين أبو عبد الله محمد بن أبي علي بن أبي نصر النوقاني الشافعي المشهور عند المشتغلين بتاريخ العراق . وامرت ايضاً بأن تخلع عليه خلعة جميلة وعمامة وطرحة ، والطرحة هي طيلسان المدرسين ، واجرت له جراية حسنة ومشاهرة كثيرة ، وسكن طلابه في المدرسة وسكن هو في دار متصلة بها ، بنيت لأجله ، وكان ذلك في خلافة ابنها الامام الناصر لدين الله على ما هو واضح من التاريخ الذي ذكرناه للافتتاح . وبنت ايضاً مسجداً في موضع الحظائر على دجلة ، ويعرف اليوم بمسجد الخفافين جنوبي المدرسة المستنصرية . ومعلوم انه بُني قبل هذه المدرسة ، ولم يبق اليوم من عمارته الأولى الا المنارة وهي أقدم المنارات ببغداد ، لأنها بنيت قبل انتهاء القرن

السادس للهجرة ، وعلى طرزها بنيت كل منائر بغداد ، من القرون الخالية بعد انشائها حتى اليوم . وجددت بناء رباط كان قرب مشهد عبيد الله العلوي المعروف اليوم بابي رابعة شرقي الاعظمية . ولقد أجمع المؤرخون على اختلاف عصورهم على أنها كانت من أرغب النساء في فعل الخير ، واكثرهن له فعلا . وكانت تبر العلماء وتفضل على الفقراء والمساكين ، وتتفقد الايتام وذوي الحاجات والفاقات ، وتتصدق بالصدقات الوافرة ، وتتفضل على أهل العلم والدين والصلاح والمنقطعين . وكانت تعطف على الحنابلة أيضاً فانها زوجت الشيخ عبد الغني ابن نقطة الحنبلي الزاهد المشهور ، بجارية من جواريها ونقلت معها جهازاً يساوي عشرة آلاف دينار . قال ابو المظفر يوسف المعروف بسبط بن الجوزي في تاريخه « كانت صالحة كثيرة المعروف والصدقات دائمة البر والصلات ، متفقدة لأرباب البيوت ، حجت وأنفقت ثلاثمائة الف دينار – على ما بلغني – وكان معها نحو من ألفي جمل ، وتصدقت على أهل الحرمين مكة والمدينة ، وأصلحت البرك والمصانع أي مخازن المياه ، وعمّرت التربة عند قبر معروف الكرخي والمدرسة الى جانبها ، وأوقفت عليهما الأوقاف . توفيت في جمادى الاولى من سنة ٥٩٩ ، وحزن ابنها الخليفة الناصر لدين الله عليها حزناً لم يحزنه ولد على والدته ، وفعل في حقها ما لم يفعله أحد ، وصلى هو عليها في صحن السلام ومشى بين يدي تابوتها إلى دجلة من ناحية قصر التاج ، ثم حُملت في الشبارة نهاراً ، والوزير نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي قائم مشدود الوسط ، وأرباب الدولة قائمون في

السفن ، وصعدوا بتابوتها من دجلة الى القرية ، وأمر الخليفة الناصر أن يمشي الناس من دجلة الى تربتها المجاورة لمعروف الكرخي والمسافة بعيدة ، وكان الوزير نصير الدين بن مهدي سميناً فكاد يهلك ، وقعد في الطريق نحواً من ثلاثين مرة ، وعُمل العزاء لها شهراً كاملاً ، وأنشدت المراثي ، وختمت الختمات ، وتكلمت أنا في العزاء ، وكان قد وقع الثلج يوم وفاتها وزاد الماء في دجلة زيادة عظيمة ، وتكدر نهر عيسى والتربة قريبة منه ... وفرّق الخليفة بعد الشهر أموالاً كثيرة في الزوايا والربط والمدارس ، وخلع على الاعيان ومن لم يخلع عليه أعطاه مالاً ، وامر بان يفرّق جميع ما خلفته والدته زمرد خاتون من ذهب وفضة وحلي وجواهر وثياب ، في جواريها ومماليكها ، فقسّم بينهم ، وحمل ما كان في خزائنها من الاشربة والمعاجين والعقاقير الى المارستان العضدي ، وكان يساوي ألوف دنانير ، وحزن عليها أهل بغداد حزناً عظيماً لانها كانت محسنة الى الناس » . (انتهى كلام سبط بن الجوزي)

أما الشبارة التي حملت فيها جنازة زمرد خاتون فهي نوع من السفن متوسطة الكبر كاليخت وأما محلة القرية التي أصعدت الجنازة من مشرعتها فهي باب السيف وما حولها نحو الغرب ، وقد نقل قول سبط ابن الجوزي ، أبو شامة المؤرخ في تاريخه « ذيل الروضتين » ، والامام شمس الدين الذهبي في تاريخ الاسلام ، وزاد نقلاً عن ابن البزوري المؤرخ أن أرباب الدولة ظلوا يترددون الى مدفن زمرد خاتون شهراً كاملاً ، لابسين ثياباً بيضاً وهي ثياب العزاء . ولم يضرب طول الشهر في الدولة طبل ولا شهر

سيف ، ودام لبس ثياب العزاء سنة كاملة ، قال الامام الذهبي : وهـذا أمرٌ لم يعمل مثـله لأحد ولا لخليفة .. وقلت أنا : وهكذا بلغ الناصر لدين الله المثل الأعلى بـين الخلفاء في كل الامور وهكذا فلتكن محبـة الولد لوالدته . ومما أثر من اخبـار هذه الجهة المعظمة ، انها كانت تحب سماع وعظ الشيخ جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ، شيخ الحنابلة في زمانه ، قال ابن جبير الرحالة الاديب في وصف مجلس وعظ الشيخ المذكور : « ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له ... بباب بدر في ساحة قصور الخليفة ، ومناظره مشرفة عليه ، وهذا الموضع المذكور هو من حرم الخليفة ، وخُصّ ابن الجوزي بالوصول اليه والتكلم فيه ، ليسمعه من تلك المناظر الخليفة ووالدته ومن حضر من الحرُم ... » ، قال : « فصعد المنبر وأرخى طيلسانه عن رأسه تواضعاً لحرمة المكان ... ثم صدع بخطبته الزهراء ... ثم اخذ في الثناء على الخليفة والدعاء له ولوالدته ، وكنى عنها بالستر الاشرف والجناب الأرأف ، ثم سلك سبيله في الوعظ ... » وموضع باب بدر كان وراء جامع مرجان الحالي .

وكانت زمرد خاتون تقيم في دار عظيمة فخمة تعرف بدار سوق التمر ، وسوق التمر هو سوق السموءل الحالي ، ومحل هذه الدار اليوم خان قريب من باب سوق المستنصر ، ثم نزلت عن هذا القصر لضرتها السيدة بنفشة ، لانها اعانت الناصر لدين الله ابنها على تولي الخلافة ، وقد كادت تولى اخاه ابا منصور هاشماً . وماتت السيدة بنفشة قبلها بعدة اشهر ، فتولت هي امرها وجهزتها

الى آخرتها احسن جهاز ، ودفنتها في تربتها تحت القبة التي ذكرنا انها تعرف بقبة الست زبيدة ، ثم دفنت هي بعدها ، وهذا نوع من الايثار عظيم عند الصالحين والصالحات . اما غيرهم وغيرهن فيعجبون ويعجبن كيف تبني السيدة قبرها في حياتها ؟ فان النفوس لا تطوع بذلك .

وبعد اثنتي عشرة سنة من وفاة زمرد خاتون ، توفي حفيدها ابو الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، الملقب بالملك المعظم وليّ عهد الخلافة العباسية ونائب ابيه في الفتوة ، فدفن مع جدته زمرد خاتون . قال الشيخ العلامة عز الدين بن الاثير في تاريخه : « ولما توفي الملك المعظم ابو الحسن علي بن الناصر لدين الله ، اخرج نهاراً ومشى جميع الناس بين يدي تابوته ، الى تربة جدته عند قبر معروف الكرخي فدفن عندها ، ولما ادخل التابوت أغلقت الابواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة ، فقيل ان ذلك صوت الخليفة ، واما العامة ببغداد فانهم وجدوا عليه وجداً شديداً ، ودامت المناحات عليه في اقطار بغداد ليلاً ونهاراً ولم يبق ببغداد محلة الا وفيها النوح ولم تبق امرأة الا واظهرت الحزن ، وما سمع ببغداد مثل ذلك في قديم الزمان وحديثه » ، (هذا كلام ابن الاثير) وهكذا فليكن حب الشعب للملوك العادلين والامراء المقسطين .

وآخر من نعلمها دفنت تحت هذه القبة ، عائشة خانم بنت مصطفى باشا وكانت زوجة حسن باشا والي بغداد ، وذلك سنة ١١٣١ هـ أي سنة ١٧١٨ م ، ذكر ذلك الرحالة الاوروبي نيبهر ونقل

ما كتب لعائشة خانم في باطن القبة [1] ، ونقله من رحلة نيبهر غيره واشار اليه العلامة لسترنج في آخر كتابه المؤلف في خطط بغداد الموسوم بكتاب « بغداد في عهد الخلافة العباسية » ، ونفى كل النفي ان تكون القبة لقبر زبيدة زوجة هارون الرشيد ، ناقلا من تاريخ عز الدين بن الاثير ان زبيدة مدفونة في مقابر قريش اي الكاظمية الحالية ، والحق معه ، إلا انه لم يعرف ان هذه القبة قبة زمرد خاتون ، بل ذهبت به الظنون الى شيء آخر هو انها قبة عون ومعين التي ذكرها ابن جبير ، وقد فند الاستاذ الكبير ماسنيون قول لسترانج تفنيداً قوياً .

وقال الاستاذ العلامة السيد محمود شكري الألوسي رحمه الله ، في كتابه « مساجد بغداد وآثارها » : « مسجد زبيدة ام جعفر ، هذا المسجد كان قرب مسجد الشيخ معروف الكرخي ، وقد اندرس سنة ١١٩٥ ، وكان واسعاً رصين البناء قوي الاركان ، ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سور الجانب الشرقي ، استعملت انقاض المسجد في بناء السور ، ولم يبق اليوم سوى قبر زبيدة من ذلك المسجد ، وعليه قبة مخروطية الشكل من نوادر الفن العماري ، وهي نحو ميل الشيخ عمر السهروردي ، وكان تاريخ العمارة داخل المشهد بالحجر الكاشاني ، وقد اقتلعه من اقتلعه» .

---

١) « هذا قبر المرحومة المغفورة الصالحة العفيفة الساعية الى الافعال المرضية والاعمال التى تستجلب المرضاة الالهية عائشة خانم بنت المرحوم مصطفى باشا مصاحب السلطان محمد خان عليه الرحمة والغفران وزوجة الدستور المكرم والوزير الافخم والي بغداد دار السلام ابي الخيرات حسن باشا ، يسر الله له الخير كما يحب ويرضى ويشاء توفيت في شهر رمضان سبعة وعشرين ليلة القدر في سنة واحدوثلاثين ومائة والف» .

ثم ذكر الكتابة التي يظن انها كانت في باطن القبة ، ونفى ايضاً مثل لسترنج ان تكون القبة لزبيدة زوجة الرشيد ، قال : « ولعل التربة التي في قبر معروف لزبيدة اخرى ، اما زوجة هارون الرشيد فقبرها في جوار قبر موسى بن جعفر كما يدل عليه ما ذكره ابن الاثير » هذا بعض كلام السيد محمود شكري .

واوجه ما يقال في سبب هذا الاستبدال ، أن اسم زمرد حطم حروفه الزمان ، فبقي منه الزاي والدال ، فظن الناس ان هذين الحرفين هما من اسم « زبيدة » لا من اسم « زمرد » ، فزمرد مجهولة التاريخ عند الناس ، ولا يعرف تاريخها الا المختصون بتاريخ العراق وخططه اختصاصاً تاماً .

السيدة سلجوقة خاتون

يظهر اسم «سلجوقة خاتون» غريباً اول وهلة، وكان واجباً ان يكون مألوفاً مأنوساً، إلا ان تاريخ العراق بمن فيه من عظماء وعظيمات، لا يزال مستبهماً مستعجماً، وهذه السيدة النبيلة بنت ملك واخت ملوك، وزوجة امير ثم زوجة خليفة عظيم، وتوفيت ببغداد ودفنت فيها، على ما نحن ذاكرون في سياق سيرتها، وطريف اخبارها، وجليل آثارها.

وُلدت هذه السيدة العظيمة سنة ٥٥٤ هـ تقريباً في قونية من البلاد المعروفة يومئذ ببلاد الروم واليوم بالاناضول وتركية، في قصر ابيها الملك قليج ارسلان الصغير بن مسعود بن قليج ارسلان الكبير السلجوقي ملك قونية وما جاورها، ونشئت هناك تنشئة ملوكية اسلامية، وكانت بارعة الجمال فائقة الخصال، شريفة النفس، كريمة الاخلاق، وكان لها من الاخوة سبعة، او اكثر منهم، لا نرى داعياً الى ذكر اسمائهم ولا الى ذكر ممالكهم، وقد خطبها الى ابيها احد ملوك الجزيرة وهو نور الدين بن محمد بن قرا ارسلان بن داود بن سكمان بن ارتق ملك حصن كيفا التي عرفت في الاخير بحسن كيف، ثم آمد المعروفة اليوم بدياربكر، وكان هذا الملك من خلفاء السلطان صلاح الدين يوسف الايوبي، فتزوجها نور الدين وأعطاه ابوها عدة حصون كانت تجاور مملكته

لتوسيع امارته ، ومكثت سلجوقة خاتون برهة في عاصمة زوجها حصن كيفا ، ثم أساء عشرتها ومعاملتها وأحب مغنية وشغفته حباً فتزوجها ومال اليها كل الميل ، فحكمت في بلاده وخزائنه وأمواله ، واعرض عن سلجوقة خاتون وتركها نسياً منسياً . فبلغ ذلك اباها قليج ارسلان ، فعزم على السير بجيش كثيف الى نور الدين محمد بن قرا ارسلان واخذ بلاده منه جزاء له بما صنع بابنته من سوء العشرة والاضرار عليها ، وهجرها هجراً متصلاً ، فكتب نور الدين الى السلطان صلاح الدين يستغيثه ويستجير به ، ويطلب اليه منع السلطان قليج ارسلان من احتلال بلاده والاستيلاء عليها ، فأرسل صلاح الدين رسولاً الى قليج ارسلان ، يحذره عاقبة ما عزم عليه ويتهدده بان اسير الى لقائه اذا تحرك هو نحو بلاد نور الدين ، فبعث اليه قليج ارسلان برسالة يقول فيها « انني كنت قد سلمت الى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتي سلجوقة خاتون ، فحيث آل الامر الى ما يعلمه صلاح الدين نفسه فأنا اريد ان يعيد إليّ نور الدين ما اخذه مني » . وترددت الرسل بينهما فلم تستقر الحال بالمراسلة ، فهادن صلاح الدين الفرنج المعروفين بالصليبية وسار في عساكره سنة ٥٧٦ نحو بلاد الروم حتى وصل الى رَعبان بين حلب وشمشاط قرب الفرات ، فأتاه فيها نور الدين بن قرا ارسلان واقام عنده ، فلما سمع قليج ارسلان بقرب صلاح الدين منه ارسل اليه اكبر امرائه وقال له : « قل لصلاح الدين ان هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا وكذا ولا بد من ان اقصد بلاده واعرّفه محلّ نفسه » . فلما وصل الرسول

واجتمع بصلاح الدين وأدّى اليه رسالة ملكه امتعض صـلاح الدين وقال له قل لصاحبك : « والله الذي لا إله إلا هو ، لئن لم يرجع لأسيرتي الى ملطية وبيني وبينها يومان ولا انزل عن فرسي الا في البلد ، ثم اقصد جميع بلاده وآخذها منه » . فرأى الرسول امراً شديداً ، فقام من عنده ، وكان قد رأى عسكر صلاح الدين وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك مما ليس عند قليج ارسلان ما يقاربه ، فعلم ان صلاح الدين ان قصدهم اخذ بلادهم ، ولكن هذا الرسول لم ييأس من النجاح بل ارسل الى صلاح الدين من الغد يطلب ان يجتمع به ثانية ، فأمر باحضاره فقال لصلاح الدين اريد ان اقول شيئاً من عندي ليس رسالة عن صاحبي واحب ان تنصفني ، فقال له قل ، قـال : يا مولانا أما هو قبيح بمثلك وانت من اعظم السلاطين واكبرهم شأناً ، ان تسمع الناس عنك انك صالحت الفرنج وتركتَ الغزو ومصالح المملكة ، واعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامـة ، وجمعت العساكر من اطراف البـلاد البعيدة والقريبة ، وخسرت انت وعساكرك الاموال العظيمة لأجل مغنية رقحاء ، فما يكون عذرك عند الله ثم عند الخليفة وملوك الاسلام وكافة العالم ؟ واحسب أن أحداً لا يُواجهك بمثل قولي ، ولكن ألا يعلم الناس ذلك ؟ ثم احسب ان قليج ارسلان مات وهذه ابنتـه سلجوقة خاتون قد ارسلتني اليك تستجيرك وتسألك ان تنصفهـا من زوجها ، فان فعلت فهو الظن بك ان لا تردها . فقال صلاح الدين له : والله الحق بيدك وان الامر لكما تقول ، ولكن هذا

الرجل دخل عليّ واستجار بي ، ويقبح بي تركه ، لكنك انت اجتمع به ، واصلح الحال بينكم على ما تحبون وانا اعينكم عليه واقبح فعله . ووعده صلاح الدين من نفسه بكل جميل . فاجتمع الرسول بصاحب الحصن نور الدين وتردد القول بينهم ، فاستقرت الحال على ان يخرج نور الدين المغنية من عصمته بعد سنة ، فان لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكن هو وابوها قليج ارسلان عليه ، واصطلحوا على ذلك ، وعاد صلاح الدين الى بلاد الشام ورجع نور الدين الى حصن كيفا فلما انقضت المدة اخرج نور الدين المغنية من بلده فتوجهت الى بغداد واقامت بها الى آخر حياتها .

وفي سنة ٥٧٩ حجت سلجوقة خاتون الى بيت الله الحرام في موكب عظيم فخم وتجمل كثير وابهة ملوكية ، وكانت في طريقها الى مكة قد مرت ببغداد وسافرت صحبة امير الحاج العراقي ابي المكارم طاشتكين بن عبد الله المستنجدي من كبار امراء الدولة العباسية ، وكان حجها في خلافة أمير المؤمنين أبي العباس أحمد الناصر لدين الله العباسي ، وقد رآها الأديب الكبير الرحالة الشهير ابن جبير الكناني وذكر أن عمرها يومذاك نحو من خمس وعشرين سنة ، وان لها كثيراً من افعال البر في طريق الحاج . منها سقي الماء للسبيل ، على ثلاثين ناضحة من الابل ، وتفرقة الطعام على ثلاثين ايضاً ، ومعها لما تختص به من كسوة وأزودة وغيرهما نحو مائة بعير . وذكر ان معها في الركب خاتونين أخريين ولكنها كانت عظماهن ، ووصفها مرة قال : فجاءتنا خاتون المسعودية المترفة شبابا وملكا ، وهي قد استقلت في هودج موضوع على

خشبتين معترضتين بين مطيتين ، الواحدة أمام الأخرى وعليهما الجلال المذهبة وهما تسيران بها سير النسيم ، سرعة ولينا ، وقد فتح لها امام الهودج وخلفه بابان وهي ظاهرة في وسطه منتقبة ، وعصابة ذهب على رأسها ، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها ، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق ، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة ، وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات والنسيم يتلاعب بعذباتهن ، وهن يسرن خلف سيدتهن سير السحاب ، ولها الرايات ، والطبول ، والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها . وابصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهز الأرض هزا ، وتسحب أذيال الدنيا عزا ، ويحق ان يكون لها هذا العز ويخدمها العز فان مسافة مملكة ابيها نحو الأربعة أشهر وصاحب القسطنطينية يؤدي اليه الجزية وهو من العدل في رعيته على سيرة عجيبة من موالاة الجهاد على سنة مرضية ...»

ووصف زيارتها للروضة النبوية المنورة بالمدينة قال : ومن عجيب ما شاهدناه من الامور البديعة الداخلة مدخل السمعة والشهرة ، ان احدى الخواتين المذكورات وهي بنت الأمير مسعود المتقدم ذكرها وذكر ابيها وصلت عشيّ يوم الخميس السادس للمحرم ورابع يوم وصولنا المدينة ، الى مسجد رسول الله -- ص -- راكبة في قبتها وحولها قباب كرائمها وخدمها والقراء أمامها والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ، ويدفعون الناس امامها ، الى ان وصلت الى باب المسجد المكرم فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها ، ومشت الى ان سلمت على النبي -- ص - والحول

امامها والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها إشادة بذكرها ، ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر ، فصلت فيها تحت الملحفة والناس يتزاحمون عليها ، والمقامع تدفعهم عنها ثم صلت في الحوض بازاء المنبر ثم مشت الى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال انه كان مهبط جبريل - ع - وأرخي الستر عليها وقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها . واستجلبت معها الى المسجد حملين من المتاع للصدقة فما زالت في موضعها الى الليل » الى ان قال : « ازيل الستر عنها وبقيت بين خدمها وكرائمها متلفعة في ردائها ، فعاينا من امرها في الشهرة الملوكية عجبا » ، وذكر صفة دخولها الموصل قال : ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وامامها عسكر رجالها يطوفون بها ، وقد حللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهلة ودنانير ، سعة الاكف ، وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات ، فلا تكاد تبين من القبة موضعا ، ومطيتاها تزحفان بها زحفا وصخب ذلك الحلي يسد المسامع ، ومطاياها مجللة الاعناق بالذهب ومراكب جواريها كذلك ، ومجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره ، وكان مشهداً بهت الابصار وأحدث الاعتبار » . وقد وصفها غير مرة بالعبادة والخير وايثار أفعال البر من صدقات ونفقات في السبيل والمحبة للصالحين وزيارتهم متنكرة لأجل الثواب . وقد ذاعت اخبار جمالها في العراق وغيرها من الاقطار ، وبلغت الامام الناصر لدين الله الخليفة العباسي ، ثم توفي عنها زوجها نور الدين محمد بن قرا ارسلان سنة ٥٨١ فارسل الخليفة الناصر لدين

الله يخطبها الى ابيها فكان ذلك تشريفاً له ولابنته سلجوقة خاتون وأجابه الى تزويجها به شاكراً ، فارسل الناصر لدين الله لاحضارها الشيخ ابا يعقوب يوسف بن احمد الشيرازي ثم البغدادي المحدث الصوفي شيخ رباط ارجوان ، فجاء بها الى بغداد سنة ٥٨٢ ، ودخلت في عصمة الخليفة ، وشغف بها واغرم بحبها ، وحلت من قلبه المحل الاسمى ، وامرت ان يبنى لها رباط اي تكية ، وتربة اي مدفن وذلك يدل على صلاحها وعبادتها وتقواها ، فشرع في بنائها في الجانب الغربي من بغداد على دجلة في محلة باب البصرة ، ووالى الاشراف على ذلك الشيخ الفقيه الواعظ عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالجيلاني الحنبلي ، ولكنها توفيت – رحمة الله عليها – قبل فراغ العمارة ، فدخل على الخليفة الناصر من الحزن عليها ما لا يوصف ، ووجد بها وجداً عظيما ظهر للناس كلهم . وبنى ابواب قصرها حتى لا يرى ما يذكره اياها . وكان لا يتمالك عن البكاء اذا ذكرها احد ، واظهرت الدولة العباسية كلها حدادها عليها ، ولبس ارباب الدولة من الوزير وغيره الثياب البيض . وكان البياض علامة حزن العباسيين إذ ذاك ، وعمل لها عزاء عظيم ، ودفنت في تربتها في الجانب الغربي من بغداد . وكانت هي والرباط اعني التكية في الموضع المعروف بالخضر الياس في ايامنا . ثم جرفت دجلة هذين البنائين العظيمين ، وكان فتح الرباط والتربة سنة ٥٨٦ وحضره خلق عظيم ، وكان يومه عظيماً مشهوداً ، وجعل الناصر في تربتها خزانة كتب عظيمة حوت كثيراً من الكتب الجليلة المكتوبة بالخطوط المنسوبة . وممن رأى

هذه الخزانة واقتبس منها كمال الدين عمر بن العديم القاضي الاديب المشهور مؤلف دفع التجري عن ابي العلاء المعري ، فقد زارها سنة ٦٥٠ ونقل منها قصة الاعسر بن مهارش الكلابي وعشقه للصقيل بنت طراد الاسدية ، ورآها معه ابو الحسن علي بن سعيد الأديب الجغرافي المؤرخ صاحب المعجب في اخبار المغرب وغيره من الكتب ، وصورة هذه العمارة واضحة في مصورة بغداد التي صورها الاستاذ مطراقي في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني ، بعد فتحه بغداد سنة ٩٤٠ وآخر من رآها ووصفها نيبهر الرحالة الكبير المشهور ، فانه لما دخل بغداد في اواسط القرن الثاني عشر للهجرة اي اواسط القرن الثامن عشر ، رأى العمارة المذكورة ورأى في التكية جماعة من الصوفية البكتاشية ، ونقل ما بقي من الكتابة على جدرانها وفيها اسم قليج ارسلان السلجوقي ، إذن كان اسم سلجوقة خاتون قد عفا او تهدم لان الاصل « سلجوقة خاتون بنت قليج ارسلان » . ولقد حار جماعة من المستشرقين في سبب وجود اسم السلطان المذكور هناك مع انه حكم في قونية وبلاد الروم ، وذهبت بهم الظنون مذاهب شتى في كيفية بنائه لمثل تلك التكية . واذ كانوا كغيرهم لا يعرفون تاريخ صاحبة القبر والتكية بقوا في متاوه ظنونهم ، اما اليوم فلم يبق من تلك العمارة اي اثر كان ، فقد جرفتها دجلة — كما ذكرنا آنفاً .

ولسبط بن التعاويذي الشاعر المشهور قصيدة في رثاء سلجوقة خاتون مثبتة في ديوانه يقول فيها :

فيا قبر ما بين الصراة ودجلة الى نهر عيسى جادك الغيث من قبر

السيدة هاجر

زوجة المستنصر بالله وأم المستعصم بالله

هذه سيرة مختصرة لسيدة جليلة ، من سيدات دار الخلافة العباسية ببغداد .

هذه السيدة الكريمة التقية ، هي هاجر زوجة المستنصر بالله ، وأم المستعصم بالله . وكانت في أول أمرها جارية من الجواري ، فأولدها المستنصر بالله ولدين ذكرين هما الامير ابو القاسم عبد العزيز ، والامير ابو احمد عبدالله الذي صار بعد وفاة أبيه المستنصر خليفة وأميراً للمؤمنين .

انها الى كونها زوجة خليفة وأم خليفة ، كانت على قاعدة جميلة ، راغبة في فعل الخيرات والمواصلة للفقراء بالبر والاحسان . ولقد أمرت ببناء رباط للصوفية بشارع ابن رزق الله بالجانب الغربي من بغداد ، وكان الرباط في شرقي قبر الشيخ الجليل معروف الكرخي . وأمرت أيضاً ببناء تربة لنفسها بجانب الرباط ، ثم توفيت سنة ٦٤٦ هـ قبل إتمامه ، فدفنت في تربتها تحت القبة ، وكان لها سبيل في طريق الحج ، ينفق فيه على فقراء الحجاج والمنقطعين في طريقه ويسقي العطاشى . وفي سنة ٦٥٠ هـ فتح هذا الرباط ، وحضر فتحه ابنها الخليفة المستعصم بالله ، ووزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي وأرباب الدولة كافة . وكان الخليفة المستعصم بالله قاعداً على سطح الرباط ، وعملت فيه دعوة عظيمة

وخلع على كل من تولى عمارته ، منهم الشيخ العلامـــة الاديب المؤرخ ظهير الدين علي بن محمد الكازروني الاصل ثم البغدادي . وقد ذكر حكاية طريفة في بناء هذا الرباط ، قال في أحد تواريخه : كنت أتولى عمـارة الرباط المستجد ، فجاءني شقاق يشق الصخر ، وقال لي : قد رأيت عجباً وينبغي أن تشاهده ، فقمت معه ، فأراني صخرة قد انفلقت عن موضع قد تعداه المنشار ، وفيـــه أوراق خضر ودودة تضطرب ، فأخذت الدودة والورق وجعلته في قرطاس وختمت عليه ، وحملته الى الشيخ صدر الدين علي بن النيّـار ، فحمله الى الخليفة المستعصم بالله ، فعجب من قدرة الله - عزّ وجـــل - ثم إن المستعصم بالله حضر وشاهد الصخرة ، ولم يكن عليها سبيل من ظاهرها ، وكان هذا المؤرخ من الثقات .

وكانت السيدة هاجر قـد حجت في ابتداء خلافة ابنهـــا وذلك سنة ٦٤١ هـ وكان أمير الحاج ابو الميامن مجاهـــد الدين أيبك المستنصريّ أحـــد مماليك الدولة العباسية . وقبل أن يذهب الى مكة المكرمة تلكم السنة خلع عليـــه في دار الخلافـــة العباسية ، وعبر الى الجانب الغربي من بغداد مـــع جنوده الذين هم برسم حماية الحجاج ، وكان فيهم امـــير يعرف بحسن الدين قيران ، فنزل في تربة زمرد خاتون المعروفـــة اليوم بالست زبيدة ، وخرجت هاجر أم المستعصم بالله من دار الخلافة ، وانحدرت في دجلة في شبارة ابنها الخليفة المستعصم بالله ، والشبّارة سفينة كاليخت ، ثم خرجت من دجلة عند قرية درزيجان ، وكانت على دجلة في الجانب الغربي ، قريبة من بغداد ، وخرج ابنهـــا

المستعصم بالله على البر ليودعها وضرب له هناك سرادق ، فلما دخل السرادق نثر عليه شرف الدين اقبال الشرابي قائد جيوش الدولة العباسية ذهباً كثيراً ، ولم يكن المستعصم قبل ذلك قد سافر سفراً نزل فيه مخيما ، ولما وصل الى الحلة مع والدته دخل داراً لهم على شاطىء الفرات ، فنثر عليه شرف الدين الشرابي ايضاً ذهباً كثيراً ، ثم توجه المستعصم الى الكوفة ودخل جامعها ، ثم قصد مشهد الامام علي - سلام الله عليه - فزاره ، وكان المزور له الشريف محمد بن كتيلة العلوي ، فلما توجه الحاج الى بيت الله الحرام ودع المستعصم بالله والدته هاجر وعاد الى بغداد .

ووصلت السيدة الى بيت الله الحرام وحجته ، وتصدقت فيه بمال كثير ثم عادت متوجهة الى بغداد في السنة القابلة - اعني سنة ٦٤٢ - ، وامر شرف الدين اقبال الشرابي وكيله عز الدين الحسين بن عبدوس ، بالمسير الى واقصة ، من طريق الحج ، بين العراق والحجاز ، ليلقى فيها والدة الخليفة وهي عائدة من مكة ، وانفذ معه تسعين جملا عليها تشريفات وحلواء وحوائج وغير ذلك ، ثم امر صدر المخزن - وكان صدر المخزن كوزير المال في الرتبة - ومشرفه عميد الدين منصور بن عباس الدجيلي بالتوجه ايضاً الى تلك المنزلة .وأمرا بان يستصحبا معهما ما اعداه من الاقامات ، والاقامات هي حوائج العيش للمسافرين القادمين ، وذكر ان فخر الدين المبارك بن المخرمي ، صاحب الديوان - وكان صاحب الديوان كوزير الداخلية - ، حمل الى السيدة هاجر من البصرة حمولاً على ستة عشر جملاً ، فيها حلوى واقراص ماء الليمون وماء

الليمون والحصرم وخل العنب من مصعّد اي مقطر وغير مصعد ، وماء الورد والخــلاف وهو نوع من الصفصاف ، وقشور الطلع وشربات وليمون اخضر واتُرُجّ وتفاح وكمثرى ، وخوخ ونارنج ورمان وعنب وباذنجان ، ومع ذلك حصر بصرية وسجادة رفيعة ، فوصلت الاوساق الى الثعلبية فتسلمت .

وعزم المستعصم بالله على التوجه الى الكوفة للقاء والدته ، فعرض له مرض منعه من ذلك ، وصدر الامر الى ارباب الدولة العباسية كافة ، بالخروج الى قرية فراشا من قرى نهر الملك ، وكانت بين الحلة وبغداد والى بغداد اقرب ، لاستقبال والدة الخليفة ، فخرجوا ما عدا الوزير نصير الدين احمد بن الناقد لعجزه عن الخروج بسبب مرضه ، فساروا الى زريران ، وهي قرية كانت بإزاء المدائن اي سلمان باك مــن الجانب الغربي ، فوجدوا سرادقات السيدة هاجر وامير الحاج بها ، فكان كل من ارباب الدولة ينزل على بعد من سرادق السيدة ويستأذن في ان يحضر ، فيؤذن له فاذا حضر قبّل الارض بباب السرادق ، فيخرج امين الدين كافور الظاهري فيقول له : « قد عُرفت خدمتك » او ما هذا معناه ، ويأذن له في العود . ثم نزلت السيدة بالليل في شبارة الخليفة واصعدت الى بغداد ، وذلك بعد ان خلعت على امير الحاج ابي الميامين ايبك الدويدار ، وأمرت له بخمسة عشر الف دينار ، وخلعت على القائد حسن الدين قيران وأمرت له بألف دينار .

ولما نزل الحاج بظاهر تربة زمرد خاتون ــ كما فعلوا في ذهابهم ــ نفذ شرف الدين عبد الله بن تاج الدين بن النيّار ، وهو وكيل

والدة الخليفة ، والعدل ضياء الدين عبد الوهاب بن سكينة وهو الخازن ، وابن بكران وهو نائب الوكيل ، وضربت لهم خيمة خلف تربة زمرد خاتون ، وخلعوا على كل من كان في خدمة السيدة في حجبا من النواب والاتباع والفراشين ، والمحفدارية اي التختروانية والجمالين والسقائين والحداة الذين كانوا يحدون الجمال ، والساقة الذين كانوا يسوقونها والنفاطين والحراس .

ومن اخبار تربة السيدة هاجر ان قائد الجيوش العباسية شرف الدين اقبالاً الشرابي ، دُفن بباب قبتها على يمين الداخل ، وذلك في سنة ٦٥٣ ، وكان من العارفين لفنون الحرب واوباب الدهاء في القتال وقيادة الجيوش ، الا انه قصّر في اختيار المستعصم بالله وجعله خليفة ، وتنحيته اخيه الامير ابي القاسم عبد العزيز بن المستنصر بالله ، وكان سوء اختياره هذا من اسباب سقوط الدولة العباسية ، لأن حسن الاختيار في الدول الوراثية الحكم والسلطان شرط في استقامة الدولة وسلامتها ، وبقائها ونمائها ، فان لم يكن وجه للاختيار لكون الوارث الاقرب واحداً ، كان الحكم من القضاء المحتوم والقدر المحموم ، كما جرى في خلافة الظاهر بامر الله بعد الناصر لدين الله ، فأدّى ذلك الى ضعف الدولة العباسية ، وانحلالها ثم زوالها .

السيدة باب بشير

زوجة المستعصم بالله

هي السيدة باب بشير ، زوجة الخليفة الشهيد ، ابي عبد الله الملقب بالمستعصم بالله بن الخليفة المستنصر بالله ، وهي التي بنت المدرسة البشيرية بالجانب الغربي من بغداد ، ونحن ذاكرون تاريخها في سياق كلمتنا هذه ، والموضع الذي بنيت فيه .

من المعلوم المشهور أن الخليفة المستعصم بالله كان آخر الخلفاء العباسيين ببغداد ، وأن المغول المعروفين بالتتار قتلوه ، وقرضوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م .

وكان المستعصم بالله قبل ان يدرك الخلافة جاريتان ، ولدت له احداهما ثلاثة بنين وابنة واحدة ، وولدت له الأخرى اربع بنات ، ولما افضت الخلافة اليه لم يتغير عليهما ولا أغارهما بل راعاهما حفظاً لعهدهما ، ثم طلبت اليه ام البنين ان يعتقها من العبودية والرق ويتزوجها ، ففعل ذلك متبعاً آثار من تقدمه من خلفاء بني العباس .

ولما ماتت ام البنين اتخذ المستعصم حظية اخرى ، يظهر لنا انها باب بشير التي قصرنا حديثنا الليلة عليها ، فولدت له ولداً ذكراً سماه محمداً وكناه بأبي نصر ، ثم طلبت منه ان يعتقها ويتزوجها ، فأجابها الى ذلك .

ان التسمية بباب بشير تبدو لنا غريبة اول وهلة ، فاذا استقرينا اسماء النساء وكناهن في تلك الايام ، بانت التسمية مألوفة مأنوسة . فقد كانوا يكنون عن السيدة العظيمة المتزوجة بالجهة ، واشتهرت بنت للخليفة المستنجد بالله بجمرة عفيف ، وأمثال ذلك كثير في تاريخهم .

ولقد تركت هذه السيدة الكريمة العظيمة – اعني باب بشير – آثاراً جميلة ، ومآثر حسنة ، مقتدية بمن سبقنها من امهات الخلفاء وزوجاتهم وحظاياهم وحسن الاقتداء دليل على جمال الابتداء ، ومن تلك الآثار : دار للقرآن الكريم ، ومدرسة للمذاهب الاربعة على قاعدة المدرسة المستنصرية ، فان المدارس كانت قبل المستنصرية طائفية – اعني ان كل مدرسة تخص بمذهب من المذاهب ، فبنى المستنصر سنة ٦٣١ المدرسة التي اضيفت الى اسمه ، وجعلها للمذاهب الاربعة : الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية ، فكان ذلك مشروعاً محموداً في التدريس ، وطريقة حسنة في تأسيس المدارس وذريعة من ذرائع التآخي والتآلف والتصافي والتعارف. وممن اسرع في تقليد المستنصر بالله في ذلك العمل الصالح ، الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الملك العادل الايوبي ملك مصر ، فقد بنى سنة ٦٣٩ وما بعدها مدرسة كبيرة في القاهرة بين القصرين ، ووقفها على المذاهب الاربعة فدرست فيها .

وفي سنة ٦٤٩ أمرت السيدة باب بشير بان تبنى لها مدرسة على هذه الطريقة المحمودة ، فاختط لها موضع تجاه محلة قطفتا ، بالجانب الغربي من بغداد ، وهي المحلة التي كانت تحاذي قبر الشيخ الزاهد

معروف الكرخي من الشرق ، فالمدرسة كانت في شرقي القبر المذكور ولا اثر لها اليوم . وامرت ايضاً أن تبنى لها دار للقرآن الكريم ، ففتحت هذه الدار في سلخ شعبان من سنة ٦٥٢ ، وكانت على شاطىء دجلة ، بالجانب الغربي من بغداد ولم نتحقق موضعها ، واستديم بناء المدرسة ، فتوفيت هذه السيدة قبل تكامله ، وذلك في تاسع شوال من سنة ٦٥٢ ، فدفنت تحت قبة أعدتها لنفسها بجانب المدرسة ، وتوفي بعدها ابنها ابو نصر محمد بن المستعصم بالله ودفن عند قبرها تحت قبتها .

وفي سنة ٦٥٣ بعد وفاتها فتحت مدرستها المعروفة بالبشيرية ، وكانت قد وقفت عليها وقوفاً كثيرة ، وكان افتتاحها في يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادى الآخرة من السنة ، وحضر المدرسة الخليفة المستعصم بالله وأبناؤه ، وجلسوا في وسطها ، وحضر الوزير مؤيدالدين محمد بن العلقمي وأرباب المناصب ومشايخ الربط والمدرسون ، وكان المدرسين فيها سراج الدين النهرقلي (نسبة الى نهر القلائين) للمتفقهة الشافعية ، ونور الدين محمد بن الغربي الخوارزمي للحنفية ، وعلم الدين احمد بن الشرمساحي المصريُ للمالكية ، وشرف الدين عبدالله بن محيي الدين يوسف بن الجوزي للحنابلة ، وعملت فيها وليمة عظيمة ، وخلع عل المدرسين المذكورين وعلى الناظر فيها ونواب العمارة ، وعلى الفرّاشين وخدم قبة السيدة باب بشير ، وأنشدت أشعار كثيرة ، وكان يوم افتتاحها يوماً مشهوداً من أواخر الايام العباسية .

ومن مدرسي هذه المدرسة المشهورين بعدئذ فخر الدين عبدالله

ابن عبد الجليل الطهراني الحنفيُّ المتوفى سنة ٦٦٧ . قيل كان هذا المدرس في وقعة هولاكو بمن يخرج الفقهاء من بغداد الى باب السور عند مخيم السلطان الجبار هولاكو ليقتلوا هناك . وذلك له بئس الخبر ، وأقبح الاثر ، ومنهم نور الدين علي بن الاطلبي الحنفي وتاج الدين عبد الرحيم بن يونس الموصلي الشافعي ، وصدر الدين محمد بن شيخ الاسلام الهروي ، ومجد الدين علي بن جعفر ، وجمال الدين عبدالله بن العاقوليّ المدفون في المحلة العاقولية في قبر مشهور مجاور لمدرسة التفيّض ، وهو من نسل النعمان بن المنذر ، وابن عبد الحق عبد المؤمن مؤلف كتاب « مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع » وغيره من الكتب الحسنة ، ونور الدين ابو طالب عبد الرحمن بن عمر البصري ، مؤلف التفسير الموسوم « بجامع العلوم في تفسير كتاب الله الحي القيوم » وغيره من جليل الكتب .

وكان في هذه المدرسة كتب موقوفة عليها ، منها الكتاب الموسوم بالعيون والنكت ، وجد على المجلد الخامس منه نص وقفيّته ومنها « هـذا ما وقفه وتصدق به الجهة الشريفة المكرمة ، المقدسة الزكية المعظمة ، السيدة الكبيرة الرضية الامينة الرحيمة ، الرؤوفة النبوية الامامية الطاهرة البرة ، جهة سيدنا ومولانا الامام المفترض الطاعة على جميع الانام ، أبي أحمد عبد الله ابن المعتصم بالله امير المؤمنين ، ثبت الله دولته وأعلى كلمته ، على طلاب العلم ، رغبة فيما عند الله من حسن الثواب ، وذخراً صالحاً ليوم المآب ، وامرت ان يكون بالمدرسة الميمونة التي امرت بانشائها ، بظاهر محلة شارع ابن رزق الله ، بالجانب الغربي

من مدينة السلام ، وان يعار برهن ضامن للقيمة ، وكتب في شهر رمضان المبارك من سنة ٦٥٢ وصلى الله على سيدنا محمد وآله » ، وبهذا استدللنا على موضع الشارع المذكور .

اما دار القرآن التي امرت ببنائها ، فقد فتحت في حياتها كما ذكرنا قبل هذا ، فمن تولى مشيختها سراج الدين ابو حفص عمر ابن علي القزويني ثم الواسطي ثم البغدادي المتوفى ببغداد سنة ٧٥٠ ، وقبره معروف حتى اليوم بقبر سراج الدين (على ما قاله فاضل معاصر) في محلة سراج الدين المنسوبة اليه قرب العوينة ، وكنا نظنه قبر رجل آخر ، فعدلنا عن ذلك الظن ، لرجحان القول الثاني ، ولكون المؤلف الذي اعتمدنا عليه اولا ممن لا يُعتمد عليهم في مثل هذه الامور الدقيقة . ومن حسن التوفيق لهذه السيدة الصالحة ، انها توفيت قبل سقوط الدولة العباسية بأربع سنوات ، وكان الموت وهو خير نزال على الحرم ، خيراً لها من مشاهدة العاقبة الفاجعة ، والمصيبة العظمى والكارثة الكبرى ، قتل زوجها الخليفــة المستعصم بالله أفظع قتلة ، واستئصال امراء بني العباس ونسائهم جميعاً اشنع استئصال ، تلك المذبحة الهائلة الشنيعة الفظيعة ، الوحشية التي امر بها اللعين الجبار هولاكوخان ، فأتيت في مقبرة عبد العزيز بن جعفر الخلال المعروف اليوم بالشيخ الخلاني ، ففي هـذه المقبرة سالت دماؤهم كالنهر ، وسقطت جثثهم هامدة مضرجة بالدمـاء ، ولم يرحم منهم شيخ ولا امرأة ، ولا صبي ولا طفل ولا عجوز ، ولا خادم ، وهو حدث تقشعر منه الابدان ، على طول الازمان .

شمس الضحى زوجة ابي العباس

ابن المستعصم بالله

هذه السيدة شمس الضحى واسمها شاه لبنى هي بنت عبد الخالق ابن ملكشاه بن صلاح الدين يوسف بن ايوب الايوبية ، وعبدالخالق هو ابن اخي الملك الناصر صلاح الدين ابن ايوب ، تزوجها ابو العباس احمد بن الخليفة المستعصم بالله الشهيد ، وصارت من سيدات دار الخلافة العباسية ، ولم نجد فيما تحت ايدينا من التواريخ سنة ولادة شمس الضحى ، وانما نعلم ان زوجها أبا العباس ولد سنة احدى وثلاثين وستمائة للهجرة ، سنة افتتاح المدرسة المستنصرية في عهد جده المستنصر بالله ، وانها رزقت منه ثلاثة اولاد : ذكر واحد وانثيين ، فالابن هو ابو الفضل محمد والبنتان هما رابعة وكان مولدها يوم عيد الاضحى من سنة ٦٥٥ وست الملوك ، وخطب لزوجها المذكور بولاية عهد الخلافة العباسية ، الا ان الاقدار وسوء الايالة والاختيار ، والتعصب المذهبي ، وغلبة الجهال على امور الدولة العباسية عجلت بسقوطها وهبوطها ، واستولى هولاكو خان على بغداد في اليوم الحادي والعشرين من المحرم من سنة ٦٥٦ ه ، وخيم في شرقي الباب الشرقي من بغداد ، فخرج اليه الخليفة المستعصم بالله والوزير مؤيد الدين ابو طالب محمد بن العلقمي ، ومع الخليفة جمع كثير ، فلما صاروا الى ظاهر سور بغداد ،

منعو اصحابه من الوصول معه ، وافردوا له خيمة فأسكن فيها ، ثم خرج ابنه ابو العباس احمد زوج شمس الضحى يوم الجمعة ثاني صفر من سنة ٦٥٦هـ ، ثم عاد الخليفة المستعصم بالله الى بغداد في الرابع من صفر ، ومعه جماعة من أمراء المغول فاخرج لهم من دار الخلافة كثيراً من الاموال ، والجواهر والحلي والزركش والثياب وأواني الذهب والفضة والأعلاق النفيسة ، ثم عاد معهم الى مخيم هولاكو ظاهر السور في بقية ذلك اليوم . فأمر هولاكو اللعين بقتله ، فقتل يوم الاربعاء رابع عشر صفر ، ولم يرق دمه بل جعل في غرارة اي شالية ورفس وديس حتى مات ، ودفن وعفي اثر قبره . ثم قتل ابنه ابو العباس المذكور واخوه ابو الفضل عبد الرحمن بن المستعصم بالله ، وأزيلت الدولة العباسية . وكان سقوطها فاجعة عظيمة أليمة ، ومصيبة جد أليمة اصابت الامة في صميمها وأصمت قلبها وأذهبت عزها ، وأهلكت سلطانها.

لا جرم أن السيدة شمس الضحى شاه لبنى زوجة ولي العهد أبي العباس ، أمست أيما من زوجها ذات أيتام ، والحرب مائية ميتمة ، تترك النساء أيامى والاولاد يتامى ، هذا إلى كونها كابدت أعظم الاهوال ، وقاست أفظع المصائب وشهدت أشد المشاهد ترويعاً وتفجيعاً .

ولما ولى هولاكو خان سنة ٦٥٧ بلاد العراق علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين الجويني ، ولقب بصاحب الديوان ، وكان يدعي النسب الى الفضل بن الربيع حاجب ابي جعفر المنصور ، خطب علاء الدين شمس الضحى وتزوجها ، وسيرة زوجها الثاني

طويلة ، فانه تولى العراق من قِبل الدولة الايلخانية الهولاكية زهاء اثنتين وعشرين سنة ، ولاية اختلط خيرها بشرها ونفعها بضرها ، وليس هذا محل الحكم لها ولا الحكم عليها ، الا انه كان يحب الادب والعلم ويجيز عليهما جوائز سنية ، وهذا امر راجح في ميزان تقدم الامم ذوات الثقافات العوالي . وكان هو اديباً اريباً في الفارسية والعربية ، وله التاريخ المشهور الموسوم بجهان كشاي اي فاتح العالم ، يعني به الملك القاهر جنكيز خان . وكان علاء الدين كثير العمارة ، ومن عمارات عهده منارة جامع القصر المعروف اليوم بجامع سوق الغزل ، فانها تم بناؤها سنة ٦٧٨ هـ ، في سلطنة أباقا خان بن هولاكو خان ، وقد مضى على بنائها ست وثمانون وستمائة سنة ، وتوفي علاء الدين سنة ٦٨١ هـ .

اما شمس الضحى شاه لبنى فانها احبت ان تبقي أثراً جميلاً كريماً في الدنيا وفي التاريخ ، فأمرت ببناء مدرسة بجوار مشهد عبيد الله العلوي ، ويعرف بقبر النذور ايضاً . ووصفه صاحب المراصد بان بينه وبين سور بغداد – اي السور الباقي أثره شمالي القلعة – نصف فرسخ ، وهذا يوافق قبر ابي رابعة شرقي الاعظمية . وفي سنة ٦٧١ هـ تكاملت عمارة المدرسة المذكورة ، وسميت « المدرسة العصمتية » نسبة الى نعتها « العصمة » ، ووقفتها على الطوائف الاربع الشافعية والحنفية والحنبلية والمالكية ، على نحو ما فعلت قبلها السيدة باب بشير زوجة المستعصم بالله صاحبة المدرسة البشيرية ، وفتحت المدرسة في تلك السنة ورتب بها من المدرسين القاضي عز الدين ابو العز احمد بن جعفر البصري للفقه الشافعي ، وعفيف

الدين ربيع بن محمد الكوفي للفقـــه الحنفي ، وشرف الدين داود الجيلي للفقه الحنبلي ، ومجد الدين شقير الواعظ للفقه المالكي ، وخلع على جميع المدرسين وعملت فيها وليمة عظيمة ، وجعلت النظر في المدرسة اي ادارة امورها ، كما نقول اليوم ، الى شهاب الدين علي ابن عبد الله صدر الوقوف ببغداد ، اي مدير الاوقاف وهو الذي أشرف على بناء منارة سوق الغزل ، وجعلت الاشراف عليه الى كل من ولي قضاء القضاة ببغداد ، وبنت الى جانب المدرسة تربة لنفسها ورباطاً للصوفية ، وجعلت في المدرسة خزانـــة كتب كما كانت عادتهم .

وكانت في سنة ٦٧٠ هـ ، زوجت ابنتها رابعة بنت ولي العهد ابي العباس احمد بن المستعصم بالله ، بشرف الدين هرون بن شمس الدين محمد الجويني ، وهو ابن اخي زوجها الثاني علاء الدين عطا ملك ، واشترطت عليه ان لا يشرب الخمر أبداً ، فأجاب الى ذلك ، وعقد العقد وكتب كتاب الصداق على مائة الف دينـــار من الذهب ، العين الصحاح ، وكان الكاتب للعقد بهاء الدين علي بن عيسى الاربلي الكردي كاتب الانشاء بديوان بغداد ، ومؤلف كشف الغمة في مناقب الائمة .

وفي سنة ٦٧٨ هـ توفيت العصمة شمس الضحى شاه لبني بغداد ، ودفنت في التربة التي بنتها بجوار مدرستها العصمتية . قال بعض المؤرخين في ترجمتها « انها كانت كثيرة الصدقات والاحسان والمبرات ، وكانت تحب اهل بغداد وترعى مصالحهم وتقوم في حوائجهم وتساعدهم ، ولعمري ان سيرتها وآثارها تدل

على انها كانت سيدة عظيمة كريمة ذات خلق كريم وديانة صحيحة ، وكان ذلك ظاهراً في افعالها ولا سيما اشتراطها على زوج ابنتها رابعة أن لا يشرب الخمر ابداً .

وفي سنة ٦٨٥ هـ في جمادى الآخرة منها توفيت ابنتها رابعة ببغداد ، ودفنت في تربة والدتها عند مشهد عبيد الله العلوي ، الذي قلنا يظهر لنا انه كان عند قبر ابي رابعة شرقي الاعظمية . ولعل هذا الاسم كان « ام رابعة » ثم صار ابا رابعة ، وكيفما كان الامر فان اسم « رابعة » نفسها يدل على موضع القبر ، لانها دفنت عند امها هناك ، وبعد وفاتها ورد الخبر بغداد بأن السلطان ارغون بن اباقاخان بن هولاكوخان ، امر بقتل زوجها شرف الدين هارون في حدود بلاد الروم ، وكان هذا السلطان المغولي يبغض بني الجويني اشد البغض فأراد استئصالهم ، وقتلهم حتى اطفالهم . وكان لرابعة من شرف الدين المذكور ابنان وابنة واحدة ، فالابنان هما المأمون عبد الله والامين احمد والبنت هي زبيدة .

أما المدرسة العصمتية فان اخبارها بعد ذلك العصر قليلة بل نادرة بل عزيزة ، ففي سنة ٦٨٣ هـ اتخذت سجناً لارباب الدولة في العراق التابعين للسلطان احمد خان بن هولاكوخان ، وهم شرف الدين هرون زوج زبيدة وشمس الدين زرديان نائبه في بغداد ، وعز الدين المشارك فى كتابة الديوان ، ونظام الدين عبد الله بن قاضي البندينجين اي مندلي وذلك لان تولية السلطان ارغون كانت كافية في اعتقالهم واهلاكهم بعد شهرهم على أقبح

الصور واسمج الهيئات . وورد ذكرها في اخبار نور الدين عثمان ابن ابراهيم بن يعقوب بن عبد الملك الآمدي المالكي ، وكان قد استنابه قاضي بغداد بدر الدين محمد بن علي الرقيّ الحنفي في الحكم والقضاء بالجانب الغربي من بغداد ، وجعل مدرساً في المدرسة العصمتية ، وكان ورعاً متديناً وتوفي سنة ٦٨٧ هـ .
في سنة ٧٢٥ في عهد الملك بو سعيد بن محمد خربنده بن ارغون بن اباقا بن هولاكو غرقت بغداد افظع الغرق وأهوله ، وانهارت اكثر عماراتها في الجانبين ، وصارت بغداد كالجزيرة وسط بحر ، فما تهدم من عماراتها المدرسة العصمتية ، وغرقت خزانة الكتب التي فيها ، وكانت تساوي اكثر من عشرة آلاف دينار ، هذا من حيث القيمة ، فأما العلم الذي درس معها فلا يمكن احداً التعويض عنه . وقيل في هذا الغرق ان الرجل كان يقف على سور بغداد فلا يرى على قدر مدّ بصره الا ماءاً وسماءاً . وغرق ناس كثير وهلكوا ، واشتد الخطب وامتنع النوم من الضجات ، والفديد والجلبة خوف الغرق ، وسار أهل بغداد في الاسواق مكشفة رؤوسهم كالزاهقة نفوسهم ، وعمائمهم في رقابهم وهم يتلون القرآن ويستغيثون الله ويودع بعضهم بعضاً ايقاناً منهم بقرب هلاكهم ، وجاء ماء الفيضان بحيات عظيمة جدا ، ولما نضب الماء نبت في ارض بغداد عروق بطيخ شكله كشكل الخيار وطعمه فج ، ونبتت اشياء اخرى غريبة الشكل ، ولا شك في ان الماء هو الذي جاء ببذور تلكم النباتات من الاصقاع الشمالية ، ولم نجد بعد هذا الغرق للمدرسة العصمتية ذكرا ولا خبرا .

فهرست الكتاب

صفحة

Search for Ti

Search for caliph almuqtafi

Search if Jaafar bin Mutazir was ever a caliph

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع

دار الكشاف

للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت - لبنان

في ٤ شباط سنة ١٩٥٠

